معية الله تعالى

فصل من كتابي

تمهيد البداية في أصول التفسير

عصام الدين بن إبراهيم النقيلي



معية الله تعالى

فصل من كتابي

(تمهيد البداية في أصول التفسير)

عصام الدين بن إبراهيم النقيلي



يا ناظرًا فيمَا عمدتُ لجمعـــــهِ * عذرًا فإنَّ أخَا البصيرةِ يعـــــذرُ
واعلمْ بأنَّ المرءَ لوْ بلغَ المـــدَى * في العُمرِ لاقَى الموتَ وهوَ مقصِّرُ
فإذا ظفرتَ بزلَّةٍ فافْتحْ لـــــهَا * بابَ التَّجاوزِ فالتَّجاوزُ أجـــدرُ
ومنَ المحالِ بأن نرَى أحدًا حوَى *كُنهَ الكَمالِ وذَا هوَ المتعــــذِّرُ[1]

(1) عَلَمُ الدِّينِ الْقَاسِمُ بْنُ أَحْمَدَ الأَنْدَلُسِيُّ، كتاب "أسنى المقاصد وأعذب الموارد".



وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[الحديد: 4].

مقدِّمةٌ

إنَّ الحمدَ للهِ

نحمدهُ ونستعينهُ ونستغفرهُ ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسنَا ومنْ سيِّئاتِ أعمالنَا، منْ يهدهِ اللهُ فلَا مضلَّ لهُ ومنْ يضللْ فلَا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنَّ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ ﷺ.

{يَاأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقّ تُقَاتِهِ وَلَاتَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}[آل عمران: 102].

{يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَّاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَّنِسَاءً وَّاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُون بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيبًا}[النساء: 1].

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُم وَيَغْفِرْلَكُم ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُّطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}[الأحزاب: 70 – 71].

أمَّا بعدُ: "فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ تعالَى، وخيرُ الهديِ هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرُّ الأمورِ محدثاتهَا، وكلَّ محدثةٍ بدعةٍ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٍ، وكلَّ ضلالةٍ فِي النَّارِ(1).

---

(1) أما بعدُ فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وإنَّ أفضلَ الهديِ هديُ محمدٍ، وشرَّ الأمورِ مُحدثاتُها، وكلَّ مُحدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ أتتْكم الساعةُ بغتةً – بُعِثتُ أنا والساعةُ هكذا – صبحَتْكم الساعةُ ومستْكم – أنا أولى بكلِّ مؤمنٍ من نفسِه – من ترك مالًا فلأهلِه – ومن ترك دَيْنا أو ضَياعًا فإليَّ وعليَّ – وأنا وليُّ المؤمنين.

الراوي: جابر بن عبدالله، المصدر: صحيح الجامع، الرقم: 1353.

التخريج: أخرجه النسائي في (المجتبى) (3/ 188)، وأحمد (3/ 310) باختلاف يسير.





وبعد:

فهذا فصل في معية الله تعالى أفردته من كتابي تمهيد البداية في أصول التفسير، شرح رسالة السعدي: "أصول وكليات من أصول التفسير لا يستغني عنها مفسر القرآن" وهذا لأهميَّة المبحث، وأسأل الله تعالى أن ينفع به المسلمين، آمين.

قالَ الإمامُ السَّعديُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: معيَّةُ اللهِ التِي ذكرهَا فِي كتابهِ، نوعانِ:

معيَّةُ العلمِ والإحاطةِ، وهيَ: المعيَّةُ العامَّةُ، فإنَّهُ معَ عبادهِ أينمَا كانُوا.

ومعيَّةٌ خاصَّةٌ، وهيَ: معيَّتهُ معَ خواصِّ خلقهِ بالنُّصرةِ، واللُّطفِ، والتَّأييدِ.

~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~

قد ذكرَ اللهُ تعالَى معيَّتهُ فِي كتابهِ العزيزِ علَى قسميهَا العامةِ والخاصَّةِ فِي عديدٍ منَ المواضعِ وقالَ تعالَى: ﴿ وَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[الحديد: 4].

وقالَ سبحانهُ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[المجادلة: 7].

وقالَ جلَّ جلالهُ: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً ﴾[النساء: 108].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة: 40].
~~~~~~~~~~

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[الشعراء: 62].

المعنَى اللُّغوي للمعيَّةِ:

المعيَّةُ نسبةً إلَى لفظِ: (مع)، وهوَ لفظٌ يقتضِي الاجتماعَ فِي المكانِ، أوِ الزَّمانِ، أوِ الشَّرفِ أوِ الرُّتبةِ، كمَا يقتضِي النُّصرةَ.

يقولُ الرَّاغبُ الأصفهانِي: (مع) يقتضِي الاجتماعَ إمَّا فِي المكانِ نحوَ همَا معًا فِي الدَّارِ، أوْ فِي الزَّمانِ نحوَ ولدَا معًا، أوْ فِي المعنَى كالمتضايفينِ نحوَ الأخُ... فإنَّ أحدهمَا صارَ أخًا للآخرِ فِي حالِ صارَ الآخرُ أخاهُ، وإمَّا فِي الشَّرفِ والرُّتبةِ نحوَ: همَا معًا فِي العلوِّ[1].

المعنَى الاصطلاحِي للمعيَّةِ:

تُستعملُ (مع) للمصاحبةِ بينَ أمرينِ لَا يقعُ بينهمَا مصاحبةٌ واشتراكٌ إلَّا فِي حكمٍ يجمعُ بينهمَا، ولذلكَ لَا تكونُ الواوُ التِي بمعنَى مع إلَّا بعدَ فعلٍ لفظًا أوْ تقديرًا لتصحَّ المعيَّةُ.

وكمالُ معنَى المعيَّةِ الاجتماعُ فِي الأمرِ الذِي بهِ الاشتراكُ...

فالأوَّلُ: يكثرُ فِي أفعالِ الجوارحِ والعلاجِ نحوَ دخلتُ معَ زيدٍ وانطلقتُ معَ عمرٍو وقمنَا معًا ومنهُ قولهُ تعالَى:﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾[يوسف: 36].

والثَّانِي: يكثرُ فِي الأفعالِ المعنويَّةِ نحوَ آمنتُ معَ المؤمنينَ وتبتُ معَ التَّائبينَ وفهمتُ المسألةَ معَ منْ فهمهَا، ومنهُ قولهُ تعالَى: ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران: 43][2]،

---

[1] المفردات ص 470.

[2] انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص 771 – وبصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي 372/3.

وقولهُ تعالَى: ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[النمل: 44].

المعيَّةُ فِي الاستعمالِ القرآنِي:

وردتْ الأداةُ (مع) فِي القرآنِ الكريمِ (164) مرَّةً[3]، والمواضعُ التِي وردتْ متعلِّقةً بالمعيَّةِ الإلهيَّةِ بلغَ عددَ ورودهَا (38) مرَّةً.

وليسَ لهَا إلَّا صيغةٌ واحدةٌ (مع).

وجاءتْ معيَّةُ اللهِ تعالَى فِي القرآنِ علَى ثلاثةِ وجوهٍ[4]:

الأوَّلُ: العلمُ والإحاطةُ: ومنهُ قولهُ تعالَى:﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾[النساء: 108]، يعنِي: عالمٌ بهمْ ومحيطٌ بفعلهمْ.

الثَّانِي: النَّصرُ والرِّعايةُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾[التوبة: 40]، يعنِي: ينصرنَا ويحفظنَا ويرعانَا.

الثَّالثُ: الاقترانُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾[الشعراء: 213].

[3] انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص772،- والمعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الياء ص1437 – 1439.

[4] انظر: الوجوه والنظائر، للدامغاني، ص 428 – 429، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص562.

ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ:

الحفظُ لغةً:

دارتْ كلمةُ الحفظِ علَى معانِي الرِّعايةِ، وعدمِ النِّسيانِ، والتَّعهُّدِ، وقلَّةِ الغفلةِ، وعدمِ الضَّياعِ، والضَّبطِ، والمواظبةِ، تقولُ كتبُ اللُّغةِ: الحاءُ والفاءُ والظَّاءُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ علَى مراعاةِ الشَّيءِ، يقالُ: حفظتُ الشَّيءَ حفظًا، قالَ اللَّيثُ: الحفظُ: نقيضُ النِّسيانِ، وهوَ التَّعاهدُ وقلَّةُ الغفلةِ[5].

---

[5] انظر: العين، الفراهيدي 3/ 199، تهذيب اللغة، الأزهري 4/ 265، مقاييس اللغة، ابن فارس 2/ 87.

الحفظُ اصطلاحًا:

يقالُ: تارةً لهيئةِ النَّفسِ التِي بهَا يثبتُ مَا يؤدِّي إليهِ الفهمُ، وتارةً لضبطِ الشَّيءِ فِي النَّفسِ، ويضادهُ النِّسيانُ، وتارةً لاستعمالِ تلكَ القوَّةِ، فيُقالُ: حفظتُ كذَا حفظًا، ثمَّ يُستعملُ فِي كلِّ تفقُّدٍ وتعهُّدٍ ورعايةٍ[6].

أوْ هوَ كمَا عرَّفهُ الجرجانيُّ: ضبطُ الصُّورِ المُدركةِ[7].

أوْ هوَ: رعايةُ العملِ علمًا وهيئةً ووقتًا وإقامةً بجميعِ مَا يحصلُ بهِ أصلهُ، ويتمُّ بهِ عملهُ وينتهِي إليهِ كمالهُ[8].

الصِّلةُ بينَ الحفظِ والمعيَّةِ:

واضحٌ منْ خلالِ التَّتبُّعِ للمادةِ اللُّغويَّةِ ودوارنهَا فِي اللِّسانِ العربيِّ العلاقةُ بينهَا وبينَ المعيَّةِ، فالحفظُ يشتركُ معَ المعيَّةِ فِي الرِّعايةِ والتَّعهُدِ والمصاحبةِ والضَّبطِ، وهيَ معانٍ موجودةٌ فِي المعيَّةِ فِي جانبهَا الاصطلاحيِّ.

---

[6] المفردات، الراغب الأصفهاني ص 244.

[7] التعريفات ص 79.

[8] التوقيف على مهمات التعاريف ص 297.

المصاحبةُ:

المصاحبةُ لغةً: المصاحبةُ والصُّحبةُ تدلُّ علَى معانِي الحفظِ والملازمةِ، والموافقةِ والمشاركةِ، فالمصاحبةُ: الموافقةُ والمشاركةُ فِي الشَّيءِ، يقالُ: صحبهُ اللهُ وأصحبهُ وصاحبهُ أي: حفظهُ، وقالَ أبُو عبيدةَ: وقولهُ جلَّ ثناؤهُ: ﴿ وَلَاهُم مِّنَّا يُصْحَبُوْنَ ﴾[الأنبياء: 43].

أي: لَا يُحفظونَ ومنهُ قولهمْ: لَا صَحبهُ اللهُ، أي: لَا حفظهُ. ويقالُ: بأهلهِ صحبةُ اللهِ وصاحبهُ أي: حفظهُ، وتقولُ: أصحبتُ الرَّجلَ إذَا اتَّبعتهُ منقادًا فأنَا مصحِبٌ والرَّجلِ مصحَبٌ، وصاحبتهُ إذَا رافقتهُ فهوَ مصحوبٌ[9]. كمَا تدلُّ علَى المنعةِ، والحمايةِ[10].

المصاحبةُ اصطلاحًا:

الموافقةُ والمشاركةُ فِي الشَّيءِ، فإنْ تتابعُوا معَ ملاقاةٍ واجتماعٍ، فأصحابٌ حقيقةً، وإنْ لَا فمجازٌ[11].

الصِّلةُ بينَ المصاحبةِ والمعيَّةِ:

المصاحبةُ واضحٌ فيهَا معنَى المعيَّةِ، كمَا أنَّ المشاركةَ فيهَا شيءٌ منَ الدَّلالةِ علَى العونِ والنُّصرةِ، وهيَ المعانِي ذاتهَا التِي دارتْ عليهَا مفردةُ المعيَّةِ.

---

[9] انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد 1/280 – التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص 307.

[10] انظر: تهذيب اللغة، الأزهري 4/ 154 – الصحاح، الجوهري 1/ 162.

[11] التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص 307.

أنواعُ معيَّةِ اللهِ تعالَى لعبادهِ:

الرَّاصدُ لآياتِ القرآنِ الكريمِ فِي المعيَّةِ والمتتبِّعِ لهَا يجدُ أنَّهَا تدورُ حولَ قطبينِ أساسيينِ أوْ محورينِ رئيسينِ وهمَا: معيَّةٌ عامَّةٌ، ومعيَّةٌ خاصَّةٌ، فالمعيَّةُ العامَّةُ لعمومِ الخلقِ، والمعيَّةُ الخاصَّةُ يتميَّزُ بهَا بعضُ عبادِ اللهِ تعالَى بشروطٍ محدَّدةٍ، مقرونةٍ بصفاتٍ مبيَّنةٍ.

والمعيَّةُ لهَا دلالتانِ، معيَّةٌ بالذَّاتِ، ومعيَّةٌ بالصِّفاتِ، ومعيَّةُ اللهِ تعالَى لعبادهِ المقصودةُ معيَّةٌ بالصِّفاتِ لإجماعِ المسلمينَ سلفًا وخلفًا علَى أنَّ معيَّةَ الذَّاتِ غيرُ مرادةٍ، وإنَّمَا المرادُ معيَّتهُ تعالَى بصفاتهِ اللَّائقةِ بمعنَى المعيَّةِ، كالعلمِ والحفظِ والنُّصرةِ ونحوهَا[12].

ويمكننَا أنْ نتتبَّعَ هذينِ النَّوعينِ علَى النَّحوِ الآتِي:

أوَّلًا: معيَّةٌ عامَّةٌ:

والمعيَّةُ العامَّةُ تكونُ لعمومِ الخلقِ وهيَ بالرِّزقِ والعلمِ والتَّدبيرِ، ممَّا يليقُ بِهِ تعالَى ويصلحُ للخلقِ عامَّةً، وقدْ وردتْ آياتٌ كريمةٌ تؤكِّدُ هذَا المعنَى، ومنهَا قولهُ تعالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[المجادلة: 7].

والمعنَى: أنَّهُ لَا يتناجَى ثلاثةٌ فيمَا بينهمْ، ولَا يتكلَّمونَ فيمَا بينهمْ بكلامِ الشَّرِّ إلَّا هوَ رابعهمْ، لأنَّهُ يعلمُ مَا يقولونَ فيمَا بينهمْ، ﴿ ولَا خمسةٌ إلَّا هوَ سادسهمْ ﴾ يعنِي: كانَ هوَ سادسهمْ، لأنَّهُ يعلمُ مَا يقولونَ

---

[12] انظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبدالستار سعيد ص 29.



فيمَا بينهمْ، ولَا أدنَى منْ ذلكَ ولَا أكثرَ إلَّا هوَ معهمْ يعنِي: عالمٌ بهمْ وبأحوالهمْ أينَ مَا كانُوا فِي الأرضِ، ﴿ ثمَّ ينبِّئهمْ بمَا عملُوا ﴾ يعنِي: يخبرهمْ بمَا عملُوا يومَ القيامةِ منْ خيرٍ أوْ شرٍّ[13].

ويسمعُ سرَّهمْ ونجواهمْ، لَا يخفَى عليهِ شيءٌ منْ أسرارهمْ (وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ) يقولُ: ولَا يكونُ منْ نجوَى خمسةٌ إلَّا هوَ سادسهمْ كذلكَ (وَلَآ أَدْنَى مِنْ ذَلكَ) يقولُ: ولَا أقلَّ منْ ثلاثةٍ (وَلَآ أَكْثَرَ) منْ خمسةٍ (إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ) إذَا تناجُوا (أَيْنَ مَا كَانُوا) يقولُ: فِي أيِّ موضعٍ ومكانٍ كانُوا، وعنَى بقولِهِ: (هُوَ رَابِعُهُمْ) بمعنَى أنَّهُ مشاهدهمْ بعلمهِ، وهوَ علَى عرشهِ[14].

وقالَ أهلُ المعانِي: يريدُ قربهُ بالعلمِ[15] لَا بالذَّاتِ.

ومعنَى كونهُ معهمْ: أنَّهُ يعلمُ مَا يتناجونَ بهِ ولَا يخفَى عليهِ مَا همْ فيهِ، فكأنَّهُ مشاهدهمْ ومحاضرهمْ، وقدْ تعالَى عنِ المكانِ والمشاهدةِ[16]

ومنْ لطائفِ الشَّيخِ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى ربطهُ البديعُ بينَ صدرِ الآيةِ وعجزهَا، واستنباطهِ لهذَا المعنَى اللَّطيفِ فِي المعيَّةِ وهيَ أنَّ هذهِ المعيَّةَ، معيَّةُ العلمِ والاطِّلاعِ، ولهذَا توعَّدَ ووعدَ علَى المجازاةِ بالأعمالِ بقولهِ: (وَاللهُ بِمَا تَعْمَلونَ بَصِيرٌ) أيْ: هوَ تعالَى بصيرٌ بمَا يصدرُ منكمْ منَ الأعمالِ، ومَا صدرتْ عنهُ تلكَ الأعمالُ، منْ برٍّ وفجورٍ، فمجازيكمْ عليهَا، وحافظهَا عليكمْ[17].

---

[13]انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٤١٦، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين 3/ 359.

[14]جامع البيان، الطبري 22/ 468.

[15]انظر: التفسير الوسيط، الواحدي 1/ 284 – أنوار التنزيل، البيضاوي 5/ 194 – تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص 845.

[16]انظر: الكشاف، الزمخشري 4/ 490 زاد المسير، ابن الجوزي 4/ 245.

[17]تيسير الكريم الرحمن ص 838.





فمعيَّةُ اللهِ تعالَى العامَّةُ للنَّاسِ معيَّةُ علمٍ واطِّلاعٍ وانكشافٍ ومشاهدةٍ.

ثانيًا: معيَّةٌ خاصَّةٌ:

فإنْ كنَّا قدْ عرَّفنَا المعيَّةَ العامَّةَ التِي تعنِي العلمَ والإحاطةَ، والرِّزقَ والتَّدبيرَ والرِّعايةَ، فإنَّ هناكَ معيَّةٌ أخرَى خاصَّةٌ يمنحهَا اللهُ تعالَى لعبادهِ المؤمنينَ الذينَ استجمعُوا صفاتٍ يحبُّهَا اللهُ تعالَى ويدعُو إليهَا، وهيَ عندئذٍ تعنِي النَّصرَ، والمعونةَ، والتَّأييدَ، والرِّعايةَ، والرَّحمةَ، والعنايةَ، أوْ رفعَ الدَّرجاتِ أوْ تكفيرَ السَّيِّئاتِ، أوِ الإكرامَ فِي الحياةِ، ونحوِ ذلكَ ممَّا يمنُّ بهِ اللهُ تعالَى علَى عبادهِ الصالحينَ، وتنوَّعَ ورودُ هذَا اللَّونِ منَ المعيَّةِ فِي القرآنِ الكريمِ، كمَا سيأتِي، كمَا أنَّ هؤلاءِ المكرمينَ المُنعمِ عليهمْ بهذهِ المعيَّةِ الخاصَّةِ أصنافٌ عدَّةٌ، منهَا:

معيَّتهُ تعالَى للملائكةِ عليهمُ الصَّلاةُ السَّلامُ.

معيَّتهُ تعالَى لعبادهِ المؤمنينَ.

معيَّتهُ تعالَى للأنبياءِ عليهمْ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

1) معيَّةُ اللهِ تعالَى للملائكةِ:

والمعيَّةُ هنَا معيَّةُ الإعانةِ والنَّصرِ والتَّثبيتِ والتَّأييدِ، كمَا قالَ تعالَى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[الأنفال: 12].

يعنِي: أَلْهَمَ ربُّكَ الملائكةَ، (أَنِّي مَعَكُمْ) أيْ: معينكمْ وناصركمْ، (فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا) يعنِي: بشِّرُوا المؤمنينَ بالنُّصرةِ، فكانَ الملكُ يمشِي أمامَ الصفِّ فيقولُ: أبشرُوا فإنكمْ كثيرٌ وعدوُّكمْ قليلٌ، واللهُ تعالَى ناصركمْ[18].

وإيحاءُ الملائكةِ إلَى المؤمنينَ، إمَّا أنْ يكونَ عنْ طريقِ الظُّهورِ المباشرِ فِي صورةِ رجالٍ، وإمَّا عنْ طريقِ الإلهامِ، يقولُ القشيريُّ فِي لطائفهِ: قيلَ كانُوا يظهرونَ للمسلمينَ فِي صورِ الرِّجالِ يخاطبونهمْ بالإخبارِ عنْ قلَّةِ عددِ المشركينَ واستيلاءِ المسلمينَ عليهمْ، وهمْ لَا يعرفونَ أنَّهمْ ملائكةٌ،

وقيلَ: تثبيتهمْ إيَّاهمْ بأنْ كانُوا يلقونَ فِي قلوبهمْ ذلكَ منْ جهةِ الخواطرِ، ثمَّ إنَّ اللهَ يخلقُ لهمْ فيهَا ذلكَ، فكمَا يوصلُ الحقُّ سبحانهُ وساوسَ الشَّيطانِ إلَى القلوبِ يوصلُ خواطرَ الملكِ، وأيَّدهمْ بإلقاءِ الخوفِ والرُّعبِ فِي قلوبِ الكفَّارِ[19].

وإلقاءِ الرُّعبِ فِي نفوسِ المشركينَ فيهِ نصرٌ للمؤمنينَ وتأييدٌ لهمْ، فلَا معونةَ أعظمُ منْ إلقاءِ الرُّعبِ فِي قلوبِ الكفرةِ ولَا تثبيتَ أبلغُ منْ ضربِ أعناقهمْ، واجتماعهمَا غايةُ النُّصرةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ غيرَ تفسيرٍ، وأنْ يرادَ بالتَّثبيتِ أنْ يُخطِرُوا ببالهمْ مَا تقوَى بهِ قلوبهمْ وتصحَّ عزائمهمْ ونيَّاتهمْ فِي القتالِ، وأنْ يظهرُوا مَا يتيقَّنونَ بهِ أنَّهمْ ممدُّونَ بالملائكةِ[20].

---

[18] تفسير السمرقندي 2/ 11.

[19] انظر: طائف الإشارات، القشيري 1/ 607 – زاد المسير، ابن الجوزي 2/ 193.

[20] انظر: الكشاف، الزمخشري 2/ 204 – معالم التنزيل، البغوي 3/ 3330

أوْ يكونَ التَّثبيتُ بحضورهمْ معهمُ الحربَ وتكثيرِ سوادهمْ، أوْ محاربتهمْ معهمْ، أوْ طمأنتهمْ وقولهمْ لَا بأسَ عليكمْ ولَا خوفَ منْ عدوِّكمْ، فكانَ الملكُ يسيرُ أمامَ الصفِّ فِي صورةِ الرَّجلِ ويقولُ: سيرُوا فإنَّ اللهَ ناصركمْ؛ ويظنُّ المسلمونَ أنَّهُ منهمْ[21].

2) معيَّةُ اللهِ تعالَى للمؤمنينَ:

وقدْ وردتْ آياتُ القرآنِ الكريمِ تبيِّنُ معيَّةَ اللهِ تعالَى الخاصَّةِ لعبادهِ المؤمنينَ الذينَ لهمْ صفاتٌ تؤهِّلهمْ لهذهِ المعيَّةِ مثلَ الصَّبرِ والإحسانِ والتَّقوَى ونحوِ ذلكَ منَ الصِّفاتِ التِي تعينهمْ علَى أنْ يكونُوا أهلًا لمعيَّةِ الملكِ سبحانهُ، ومنْ هذهِ الآياتِ قولهُ تعالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[البقرة: 153].

ومعنَى المعيَّةِ هنَا النَّصرُ والمعونةُ، والمظاهرةُ، فإنَّ منْ كانَ اللهُ تعالَى معهُ فهوَ ناصرهُ وظهيرهُ وراضٍ بفعلهِ، كقولِ القائلِ: ﴿ افعلْ يَا فلانَ كذَا وأنَا معكَ ﴾، يعنِي: إنِّي ناصركَ علَى فعلكَ ذلكَ ومعينكَ عليهِ[22].

وعلَى الرُّغمِ منْ أنَّ اللهَ تعالَى معَ كلِّ أحدٍ معيَّةً عامَّةً إلَّا أنَّهُ معَ الصَّابرينَ معيَّةً خاصَّةً، وقدْ خصَّهمْ بالمعيَّةِ حتَّى يعلمُوا أنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالَى بمعيَّتهِ لهمْ يفرِّجُ عنهمْ، وينصرهمْ، لقدِ استوجبُوا نهايةَ الذُّخرِ، وعلُوِّ القدرِ حيثُ نالُوا معيَّةَ اللهِ تعالَى[23].

---

[21] انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي 378/7.
[22] جامع البيان 3/ 214.
[23] انظر: تفسير السمرقندي 1/ 105 – الكشف والبيان، الثعلبي 2/ 21 – لطائف الإشارات، القشيري 1/ 138.

قالَ الإمامُ ابنُ تيميَّةَ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي شرحِ حديثِ النُّزولِ: لفظُ المعيَّةِ فِي كتابِ اللهِ جاءَ عامًّا كمَا فِي قولهِ تعالَى:﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[الحديد: 4]، وفِي قولهِ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[المجادلة: 7]، إلَى قولهِ: ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُواْ ﴾.

وجاءَ خاصًّا كمَا فِي قولهِ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾[النحل: 128].

وقولهِ: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[طه: 46].

وقولهِ: ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة: 40].

فلوْ كانَ المرادُ بذاتهِ معَ كلِّ شيءٍ لكانَ التَّعميمُ يناقضُ التَّخصيصَ، فإنَّهُ قدِ علمَ أنَّ قولهُ: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾ أرادَ بهِ تخصيصَ نفسهِ وأبَا بكرٍ دونَ عدوِّهمْ منَ الكفَّارِ.

وكذلكَ قولهُ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ خصَّهمْ بذلكَ دونَ الظَّالمينَ والفجَّارِ.

وأيضًا فلفظُ المعيَّةِ ليستْ فِي لغةِ العربِ ولَا فِي شيءٍ منَ القرآنِ أنْ يرادَ بهَا اختلاطَ إحدَى الذَّاتينِ بالأخرَى، كمَا فِي قولهِ: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾[الفتح: 29]، وقولهِ: ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[النساء: 146]، وقولهِ: ﴿ اِتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ اُلْصَّادِقِينَ ﴾[التوبة: 119]، وقوله: ﴿ وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ ﴾[الأنفال: 75].

ومثلُ هذَا كثيرٌ، فامتنعَ أنْ يكونَ قولهُ ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ يدلُّ علَى أنْ تكونَ ذاتهُ مختلطةٌ بذواتِ الخلقِ وقدْ بسطَ الكلامُ عليهِ فِي موضعٍ آخرَ وبيَّنَ أنَّ لفظَ المعيَّةِ فِي اللُّغةِ، وإنِ اقتضَى المجامعةَ والمصاحبةَ والمقارنةَ، فهوَ إذَا كانَ معَ العبادِ لمْ ينافِ ذلكَ علوَّهُ علَى عرشهِ، ويكونُ حكمُ معيَّتهِ فِي كلِّ موطنٍ بحسبهِ، فمعَ الخلقِ كلِّهمْ بالعلمِ والقدرةِ والسُّلطانِ، ويخصُّ بعضهمْ بالإعانةِ والنُّصرةِ والتَّأييدِ[24].

وهذهِ المعيَّةُ المقتضيةُ للنَّصرِ والعونِ والإمدادِ، معيَّةٌ خاصَّةٌ كمَا سبقَ، "فاللهُ ناصرهمْ ومجيبُ دعوتهمْ، ومنْ كانَ اللهُ ناصرهُ فلَا غالبَ لهُ، أمَّا الجازعُ فقلبهُ لاهٍ عنْ ذكرِ اللهِ، والقلبُ اللَّاهِي ممتلئٌ بهمومِ الدُّنيَا وأكدارهَا، وإنْ حازَ الدُّنيَا بحذافيرهَا.

وقدْ جرتْ سنَّةُ اللهِ أنَّ الأعمالَ العظيمةَ لَا تنجحُ إلَّا بالثَّباتِ والدأبِ عليهَا، ومدارُ ذلكَ كلِّهِ الصَّبرُ، فمنْ صبرَ فهوَ علَى سنَّةِ اللهِ تعالَى واللهُ معهُ، فيسهلُ لهُ العسيرُ منْ أمرهِ، ويجعلُ لهُ فرجًا منْ ضيقهِ، ومنْ لمْ يصبرْ فليسَ اللهُ معهُ، لأنَّهُ تنكَّبَ عنْ سنَّتهِ، فلنْ يبلغَ قصدهُ وغايتهُ"[25].

وكمَا أنَّ اللهَ تعالَى معَ الصَّابرينَ والمحسنينَ فهوَ كذلكَ معَ المتَّقينَ.

---

[24] محاسن التأويل 1/ 437.

[25] تفسير المراغي 2/ 23.

قالَ تعالَى: ﴿ واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ ﴾[البقرة: 194].

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: "يريدُ معَ أوليائهِ الذينَ يخافونهُ فيمَا كلَّفهمْ منْ أمرهِ ونهيهِ"، وقالَ الزَّجاجُ: "تأويلهُ أنَّهُ ضامنٌ لهمْ النَّصرَ"[26].

وكمَا تكونُ المعيَّةُ بالتَّأييدِ تكونُ كذلكَ منَ الظُّلمِ بالنُّصرةِ والظَّفرِ بالمعونةِ والحفظِ والعلمِ[27].

3) معيَّةُ الرُّسلِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ وهيَ علَى أقسامٍ:

منْ صورِ المعيَّةِ الواردةِ فِي القرآنِ الكريمِ معيَّةُ المرسلينَ عليهمُ السَّلامُ، ويُقصدُ بهَا جانبانِ: معيَّةُ الرُّسلِ للنَّاسِ، ومعيَّةُ النَّاسِ للرُّسلِ.

أوَّلًا: معيَّةُ الرُّسلِ للنَّاسِ، وهيَ علَى أقسامٍ:

وقدْ جمعهَا بعضهمْ علَى التَّالِي:

أ) معيَّةُ التَّربُّصِ والانتظارِ:

وهيَ فِي جانبِ المدعوِّينَ بعدَ إقامةِ الحجَّةِ عليهمْ وتنكُّرهمْ للبرهانِ واعتسافهمْ للدَّليلِ، ومنهُ مَا حدثَ معَ نبيِّ اللهِ هودٍ عليهِ السَّلامُ معَ قومهِ، إذْ قالَ اللهُ تعالَى فيهمْ: ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾[الأعراف: 71].

---

[26] انظر: التفسير البسيط 10/ 417.

[27] انظر: تفسير السمعاني 2/ 308 – المحرر الوجيز، ابن عطية 3/ 31 – التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي 1/ 439.

والمعنى كمَا قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا: وجبَ ونزلَ عليكمْ عذابٌ وسخطٌ[28].

وهذَا تهديدٌ ووعيدٌ منَ الرَّسولِ لقومهِ ولهذَا عقبهُ بقولهِ: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[الأعراف: 72].

وقدْ ذكرَ اللهُ سبحانه صفةَ إهلاكهمْ فِي أماكنَ أخرَى منَ القرآنِ[29]، وقالَ تعالَى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾[الذَّاريات: 41 – 42].

ومنهُ مَا وردَ علَى لسانِ شعيبٍ عليهِ السَّلامُ: ﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود:٩٣].

يعنِي: اعملُوا فِي هلاكِي وفِي أمرِي، إنِّي عاملٌ فِي أمركمْ ومكانتكمْ، ثمَّ قالَ: (سَوْفَ تَعْلَمُونَ) وهذَا وعيدٌ لهمْ، ستعلمونَ منْ هوَ كاذبٌ، وقالَ: (مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ) يعنِي: يهلكهُ ويهينهُ، وقالَ (وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ) يعنِي: ستعلمونَ منْ هوَ كاذبٌ.

ويقالُ معناهُ: منْ يأتيهِ عذابٌ يخزيهِ، ويخزِي أمرهُ، منْ هوَ كاذبٌ علَى اللهِ تعالَى بأنَّ معهُ شريكًا، (وَارْتَقِبُوا) يعنِي: انتظرُوا بِي العذابَ (إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) يعنِي: منتظرٌ بكمْ العذابَ فِي الدُّنيَا[30].

---

[28] انظر: النكت والعيون، الماوردي 2/ 234 – زاد المسير، ابن الجوزي 2/ 134.

[29] انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 3/390.

[30] انظر: جامع البيان، الطبري 15/ 263 – تفسير السمرقندي 2/ 168.

والمعنَى: (اعملُوا) علَى تؤدتكمْ[31] وتمكُّنكمْ فإنِّي علَى تمكنِّي، فسوفَ تعلمونَ أيُّنَا الجانِي علَى نفسهِ، والمخطئُ فِي فعلهِ، فذلكَ قولهُ: (مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ) يذلهُ (وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ) وانتظرُوا العذابَ إنِّي معكمْ منتظرٌ[32].

ب) معيَّةُ الصَّبرِ والالتزامِ، معَ ضعفاءِ المؤمنينَ:

ومنهُ قولهُ تعالَى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾[الكهف: 28].

وفِي الآيةِ الكريمةِ يأمرُ اللهُ تعالَى نبيَّهُ ﷺ بالصَّبرِ معَ هذهِ الفئةِ المؤمنةِ حتَّى يبلِّغهمْ رسالتهُ، وألَّا يرفعَ بصرهُ عنهمْ، وعدمِ الانشغالِ بمنْ غفلَ عنْ ذكرِ اللهِ تعالَى، واتَّبعَ هوَى نفسهِ.

يقولُ تعالَى ذكرهُ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: (وَاصْبِرْ) يا محمَّدُ (نَفْسَكَ مَعَ) أصحابكَ (الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) بذكرهمْ إيَّاهُ بالتَّسبيحِ والتَّحميدِ والتَّهليلِ والدُّعاءِ والأعمالِ الصَّالحةِ منَ الصَّلواتِ المفروضةِ وغيرهَا (يُرِيدُونَ) بفعلهمْ ذلكَ (وَجْهَهُ) لَا يريدونَ عرضًا منْ عرضِ الدُّنيَا.

وقولهُ تعالَى: (تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يقولُ تعالَى ذكرهُ لنبيِّهِ ﷺ: لَا تعدُ عيناكَ عنْ هؤلاءِ المؤمنينَ الذينَ يدعونَ ربَّهمْ إلَى أشرافِ المشركينَ، تبغِي بمجالستهمُ الشَّرفَ والفخرَ[33].

---

[31] تؤدت: إذا اختالت المرأة، ينظر فقه اللغة وسر العربية للثعالبي.

[32] انظر: معالم التنزيل، البغوي 4/ 197 – تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين 2/ 307.

[33] جامع البيان، الطبري 18/ 6.

ومنْ روائعِ الآيةِ الكريمةِ ولطائفهَا أنَّهُ تعالَى قالَ: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ) ولمْ يقلْ: "قلبكَ" لأنَّ قلبهُ كانَ معَ الحقِّ، فأمرهُ بصحَّتهِ جهرًا بجهرٍ، واستخلصَ قلبهُ لنفسهِ سرًّا بسرٍّ.

وقالَ: (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ): معناهَا مريدينَ وجههُ أيْ فِي معنَى الحالِ، وذلكَ يشيرُ إلَى دوامِ دعائهمْ ربَّهمْ بالغداةِ والعشيِّ وكونِ الإرادةِ علَى الدَّوامِ[34].

ثانيًا: معيَّةُ النَّاسِ للرُّسلِ:

والمتأمِّلُ للآياتِ التِي تناولتْ معيَّةَ النَّاسِ للرُّسلِ يمكنُ أنْ يقسمهَا إلَى قسمينِ:

معيَّةٌ لهَا اتِّصالٌ غيرُ مباشرٍ بالدِّينِ، مثلَ معيَّةَ صاحبَيْ يوسفَ ليوسفَ فِي السِّجنِ، ومعيَّةُ إسماعيلَ لإبراهيمَ عليهمَا السَّلامُ عندمَا بلغَ معهُ السَّعيَ.

ومعيَّةٌ لهَا اتِّصالٌ مباشرٌ بالدِّينِ وهيَ التِي تعنِي الاتِّباعَ ويعبِّرُ عنهَا القرآنُ الكريمُ بالاستجابةِ والإسلامِ، والطَّاعةِ، والنُّصرةِ، والجهادِ، والعبادةِ، والتَّوبةِ، ونحوهَا.

وقدْ سلكَ القرآنُ الكريمُ فِي بيانِ معيَّةِ النَّاسِ للرُّسلِ مسلكينِ، مسلكٌ عامٌّ ومسلكٌ خاصٌّ، فالعامُّ هوَ مَا ذُكرتْ فيهِ المعيَّةُ بصفةٍ عامَّةٍ دونَ تحديدِ صاحبِ المعيَّةِ، وتأتِي هذهِ الآياتُ فِي صورةٍ سننيَّةٍ قاعديةٍ مطَّردةٍ، كقولهِ تعالَى: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾[آل عمران:146].

[34] لطائف الإشارات، القشيري 2/ 391.

وكمَا نلاحظُ فِي الآيةِ الكريمةِ أنَّ لفظةَ: (نَبِي) وردتْ نكرةً بمَا يفيدُ عمومهَا وشيوعهَا، ومنهُ قولهُ تعالَى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ۖ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[البقرة: **214**].

وفِي هاتينِ الآيتينِ تبدُو صورةُ المعيَّةِ فِي أقوَى مراحلهَا وفِي أدقِّ خصائصهَا إذْ هيَ فِي مرحلةِ الابتلاءِ والاختبارِ والجهادِ ومسِّ البأساءِ والضرَّاءِ والزَّلزلةِ.

والمعنَى وكأيِّنِ منْ نبيٍّ قاتلَ معهُ جماعاتٌ كثيرةٌ ربَّانيونَ علماءُ أتقياءُ، أوْ عابدونَ لربِّهمْ، فمَا وهنُوا لمَا أصابهمْ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى، ومَا فترُوا ولمْ ينكسرْ جدُّهمْ لمَا أصابهمْ منْ قتلِ النَّبيِّ أوْ بعضهمْ، ومَا ضعفُوا عنِ العدوِّ أوْ فِي الدِّينِ، ومَا استكانُوا ومَا خضعُوا للعدوِّ بلْ صبرُوا وثبتُوا، وشجَّعُوا أنفسهمْ، هذَا تسليةٌ للمؤمنينَ، وحثٌّ علَى الاقتداءِ بهمْ، والفعلِ كفعلهمْ، وأنَّ هذَا أمرٌ قدْ كانَ متقدِّمًا، لمْ تزلْ سنَّةُ اللهِ تعالَى جاريةٌ بذلكَ[35].

ثالثًا: معيَّةُ الرُّسلِ الخاصَّةِ:

وأمَّا المسلكُ الخاصُّ فقدْ بدَا فِي حديثِ القرآنِ الكريمِ عنِ الرُّسلِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ بذكرهمْ صراحةً، فقدْ حفلتْ آياتُ القرآنِ ببيانِ هذهِ المعيَّةِ، ويمكنُ أنْ نتتبَّعهَا علَى النَّحوِ الآتِي:

---

[35] انظر: جامع البيان، الطبري **6/ 111** – معالم التنزيل، البغوي **2/ 116**.

معيَّةُ نوحٍ عليهِ السَّلامُ:

أوَّلُ مَا نلمحُ فِي الآياتِ التِي وردتْ عنِ المعيَّةِ فِي حقِّ نوحٍ والذينَ آمنُوا معهُ، يبدُو لنَا أنَّهَا منْ أكثرِ المواطنِ التِي تكرَّرَ فيهَا لفظُ المعيَّةِ، معَ نبيٍّ منَ الأنبياءِ، فقدْ وردتْ ثمانِي مرَّاتٍ وكأنَّ فِي ذلكَ تأسيسًا لأنَّ معيَّةَ الصَّالحينَ أصلٌ فِي قيامِ الحضارةِ وبقاءِ الإنسانيَّةِ أصلًا، كمَا أنَّ فِي ذلكَ بيانًا وإشارةً إلَى أنَّ قيامَ الجماعةِ المؤمنةِ أصلٌ قديمٌ فِي دعوةِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ، كمَا نلاحظُ أنَّ معيَّةَ نوحٍ والإيمانُ باللهِ سببٌ فِي النَّجاةِ والفوزِ، فقدْ فصلتِ الآياتُ الكريمةُ بينَ معسكرينِ، معسكرُ الخيرِ والحقِّ وهمْ منْ ركبُوا معَ نوحٍ فِي الفلكِ، ومعسكرِ الشَّرِّ والباطلِ وهمُ المغرقونَ، ولذلكَ دعَا نوحٌ عليهِ السَّلامُ ابنهُ ليركبَ معهمْ وقالَ: ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾[هود: 42].

كمَا تلمِّحُ الآياتُ الكريمةُ أنَّ منْ تمامِ نعمةِ اللهِ تعالَى علَى المؤمنينَ معهُ أنْ أهلكَ عدوَّهمْ، وتكرَّرَ هذَا فِي آياتٍ متعدِّدةٍ، حيثُ قالَ سبحانهُ:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: 64].

وقالَ تعالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾[يونس: 73].

معيَّةُ صالحٍ عليهِ السَّلامُ:

وفِي حقِّ صالحٍ عليهِ السَّلامُ مَا زالَ التَّأكيدُ أنَّ المعيَّةَ والإيمانَ سببُ النَّجاةِ والعصمةِ، فقدْ وردَ التَّلازمُ بينَ الإيمانِ والمعيَّةِ كذلكَ، فقالَ تعالَى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾[هود: 66].

معيَّةُ شعيبٍ عليهِ السَّلامُ:

وفِي حقِّ شعيبٍ عليهِ السَّلامُ يستمرُّ الأمرُ علَى تباعدِ الزَّمانِ والمكانِ، بلْ تتَّضحُ تلازميَّةُ النَّصرِ بالمؤمنينَ منْ خلالِ معرفةِ الكافرينَ بهذَا، فلمْ يقتصرْ التَّهديدُ هنَا لشعيبٍ فقطْ بلْ هوَ والذينَ معهُ، وهنَا قالَ تعالَى: ﴿ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ [الأعراف: 88].

بلْ تبدُو سنَّةً منْ سننِ اللهِ تعالَى فِي الدَّعواتِ وأصحابهَا إلَى الإخراجِ والإبعادِ، وهيَ سنَّةٌ تتكرَّرُ، شأنُ السُّننِ الماضيةِ؛ فقدْ هدَّدُوا شعيبًا والذينَ آمنُوا معهُ بالطَّردِ والإبعادِ حتَّى يعودُوا فِي ملَّتهمْ مرَّةً أخرَى، والزَّمنُ يعيدُ نفسهُ وسننهُ الماضيةَ، والجوابُ علَى تراخِي الزَّمنِ وتباعدِ المكانِ فقدْ قالَ تعالَى: ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾[الأعراف: 89].

ويستمرُّ الجوابُ علَى نفسِ السُّؤالِ حتَّى يقضِي اللهُ تعالَى بالحقِّ وينتصرَ الصِّدقُ ورسالةُ الإسلامِ.

معيَّةُ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ:

وتستمرُّ النَّماذجُ الرَّائدةُ فِي المعيَّةِ معَ الأنبياءِ والمرسلينَ علَى تباعدِ المكانِ وتطاولِ الزَّمانِ، فنصلُ إلَى إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ، وتستمرُّ آياتُ المعيَّةِ فِي التَّأكيدِ علَى أهميَّةِ الأمَّةِ الجديدةِ وضرورةِ صلابتهَا فِي مقارعةِ الباطلِ ومنازلةِ الشِّركِ إلَى آخرِ مدَى، ويبدُو منَ الآيةِ الكريمةِ مصارعةُ الذينَ آمنُوا للكافرينَ مصارعةً فكريَّةً واضحةً بانَ فيهَا إعلانُ البراءةِ منهمْ، وكفرهمْ بهمْ، وبدوِّ العداوةِ والبغضاءِ أبدًا حتَّى يؤمنُوا باللهِ تعالَى وحدهُ، وهذهِ نقلةٌ فِي الخطابِ لمْ تكنْ منْ قبلُ، تبدُو فيهَا المفاصلةُ والمباينةُ حتَّى يظهرَ معنَى الولاءِ والبراءِ، ثمَّ الالتجاءُ إلَى اللهِ تعالَى والتوكُّلِ عليهِ والإنابةِ إليهِ، والوعيِ العمليِّ بأنَّ الكلَّ صائرٌ إليهِ.

فيقولونَ فِي وضوحٍ وشموخٍ: ﴿ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۖ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾[الممتحنة: 4].

ولأمرٍ حكيمٍ صُدِّرَتِ الآيةُ بندبِ المؤمنينَ إلَى التأسِّي بهذهِ الصِّفاتِ التِي لَا بدَّ منهَا فِي المقارعةِ، ثمَّ كرَّرَ القرآنُ الكريمُ لفتَ أنظارِ المؤمنينَ إلَى هذهِ الأسوةِ الحسنةِ بعدَ آيةٍ واحدةٍ فقالَ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [الممتحنة: 6].

معيَّةُ موسَى وهارونَ عليهمَا السَّلامُ:

ومنْ جمعِ الآياتِ التِي تتحدَّثُ عنْ معيَّةِ موسَى عليهِ السَّلامُ يمكننَا أنْ نستبينَ بعضَ المفاهيمِ منهَا:

إنَّ المعيَّةَ كانتْ منْ بدايةِ الدَّعوةِ، وهيَ معيَّةُ هارونَ أخيهِ لهُ، قالَ تعالَى: ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[القصص: 34].

وأنَّ المعيَّةُ أمرٌ منَ اللهِ تعالَى منْ بدايةِ الدَّعوةِ، قالَ تعالَى: ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[الأعراف: 105].

وهذَا مبنِي علَى أنَّ الأمرَ بالمعيَّةِ كانَ منْ بدايةِ الدَّعوةِ: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[الشعراء: 16 – 17].

فالإرسالُ مقيَّدٌ بالمعيَّةِ فِي الآياتِ جميعًا، وليسَ مجرَّدَ إرسالٍ مطلقٍ يتحرَّرُ بهِ بنُو إسرائيلَ منْ بطشِ فرعونَ فقطْ، وإنَّمَا هوَ دخولٌ فِي معيَّةِ الجماعةِ المسلمةِ الجديدةِ، التِي تتميَّزُ بهَا عنْ معيَّةِ فرعونَ وقومهِ[36].

معيَّةُ موسَى وموقفِ أتباعِ فرعونَ منهَا:

وهذهِ المعيَّةُ كمَا كانتْ أمرًا منْ بدايةِ الدَّعوةِ، وطلبًا منْ موسَى وهارونَ لفرعونَ حينَ طلبَا أنْ يرسلَ معهمْ بنِي إسرائيلَ، أدركهَا أتباعُ فرعونَ حينَ أرادُوا وأْدَ الدَّعوةِ منَ البدايةِ، فاطيَّرُوا بهَا وبهِ وبهمْ فكانُوا

---

[36] المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبدالستار سعيد ص 149 – بتصرُّف.

كمَا وصفَ القرآنُ الكريمُ: ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: 131].

وكذلكَ كانتْ نظرةُ أتباعِ فرعونَ إلَى موسَى وهارونَ وقومهمَا حينَ ظهرتْ دعوتهمْ، وبدأَ النَّاسُ يقتنعونَ بهَا، كمَا وصفَ القرآنُ الكريمُ: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾[غافر: 25].

استنقاذُ بنِي إسرائيلَ منْ فرعونَ:

كمَا كانتِ المعيَّةُ واضحةً فِي نجاةِ هؤلاءِ المؤمنينَ، قالَ تعالَى: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾[الشعراء: 65].

والمعنَى: وأنجينَا موسَى ممَّا أتبعنَا بهِ فرعونَ وقومهِ منَ الغرقِ فِي البحرِ ومنْ معَ موسَى منْ بنِي إسرائيلَ أجمعينَ[37].

معيَّةُ عيسَى عليهِ السَّلامُ:

وأمَّا نبيُّ اللهِ عيسَى عليهِ السَّلامُ فأظنُّهُ لمْ يكنْ مؤسِّسًا لأمَّةٍ جديدةٍ، بلْ متمِّمًا مَا بدأهُ أخوهُ موسَى عليهِ السَّلامُ فإنَّ الحديثَ عنْ معيَّتهِ قدْ وردَ علَى لسانِ الحواريينَ كمَا قالَ تعالَى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾[آل عمران: 52 – 53].

---

[37] جامع البيان، الطبري 19/ 360.

أي: نحنُ أنصارُ اللهِ تعالَى ومنْ ينصرِ الرَّسولَ فقدْ نصرَ اللهَ تعالَى لقولهِ تعالَى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[النساء: 80].

أي: نحنُ أنصارُ اللهِ تعالَى آمنَّا بهِ إيمانًا صادقًا واتَّبعنَا رسلهُ واشهدْ بأنَّا مسلمونَ؛ إذِ الإسلامُ هوَ دينُ كلِّ الأنبياءِ والرُّسلِ معَ اختلافِ شرائعهمْ.

ثمَّ قالَ الحواريونَ: ربَّنا آمنَّا وصدَّقنَا بمَا أنزلتَ فِي كتابكَ واتَّبعنَا الرَّسولَ عيسَى ابنَ مريمَ عليهِ السَّلامُ، فاكتبنَا مع الشَّاهدينَ الذينَ يشهدونَ لأنبيائكَ بالصِّدقِ[38].

معيَّةُ محمَّدٍ رسولُ اللهِ ﷺ:

لمَّا انتقلنَا إلَى النَّبيِّ ﷺ وبيانِ المعيَّةِ فِي حقِّهِ فاجأنَا أنَّ آياتِ المعيَّةِ فِي حقِّهِ هيَ أكثرُ المواطنِ ورودًا فِي القرآنِ الكريمِ، وأكثرهَا تفصيلًا بينَ خاصٍّ وعامٍّ، والخاصُّ فيهِ تفصيلاتٌ دقيقةٌ يأتِي بيانهَا، لكنِ الإشارةُ الواضحةُ هنَا فِي الآياتِ أنَّهُ كمَا أنَّ الأمَّةَ الخاتمةَ تحتاجُ إلَى جهدٍ فِي تأسيسهَا وبنائهَا، فهيَ كذلكَ تحتاجُ إلَى طولِ معيَّةٍ وصحبةٍ للرَّسولِ ﷺ فِي حياتهِ، وبعدَ وفاتهِ لسنَّتهِ ومنهاجهِ، وكلَّمَا اقتربتِ الأمَّةُ منْ سنَّتهِ ودخلتْ فِي معيَّتهِ كلَّمَا اقتربتْ منَ النَّجاةِ والفلاحِ، والعزِّ والنَّجاحِ، وكلَّمَا ابتعدتْ عنْ منهاجهِ كلَّمَا ضلَّتْ سبيلهَا وتنكَّبتْ طريقهَا.

قالَ تعالَى: ﴿ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التوبة: 88].

---

[38] التفسير الواضح، محمد حجازي 1/ 236.

وهنَا ربطَ اللهُ تعالَى حصولهمْ علَى الخيراتِ والفلاحِ بالإيمانِ والمعيَّةِ والجهادِ بالأموالِ والأنفسِ.

وإذَا حصرنَا الآياتَ التِي تناولتْ تلكَ المعيَّةَ المباركةَ وجدنَا أنَّهَا سارتْ فِي محورينِ رئيسينِ، محورٌ عامٌّ وآخرَ خاصٌّ.

فالمعيَّةُ العامَّةُ هيَ التِي تناولتْ أمورَ الدِّينِ والرِّسالةِ جملةً، وفيهَا حديثٌ إلَى المدعوِّينَ عامَّةً كقولهِ تعالَى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[الملك: 28].

وقولهُ سبحانهُ: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾[الأنبياء: 24].

وقدْ كانتْ هذهِ المعيَّةُ واضحةً وظاهرةً حتَّى فِي أذهانِ المشركينَ إذْ قالُوا: ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾[القصص: 57].

والمعيَّةُ الخاصَّةُ وهيَ التِي بدَا فيهَا معيَّةُ النَّبيِّ ﷺ للمؤمنينَ، وتنوَّعتْ هذهِ المعيَّةُ وكثرتْ صورهَا فمرَّةً تكونُ فِي الجهادِ، كقولهِ تعالَى: ﴿ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[التوبة: 88].

ومرَّةً فِي عتابِ المنافقينَ المخلفينَ عنِ الجهادِ كقولهِ: ﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾[التوبة: 86].

ولذَا أرشدَ اللهُ نبيَّهُ ﷺ إلَى حرمانهمْ منْ هذهِ المعيَّةِ، فقالَ: ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾[التوبة: 83].

ومرَّةً تكونُ فِي صلاةِ الخوفِ كقولهِ تعالَى: ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾[النساء: 102].

ومرَّةً تكونُ فِي الهجرةِ، كقولهِ تعالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾[الأحزاب: 50].

ومرَّةً فِي تعليمِ المسلمينَ منهجيَّةَ التَّعاملِ معَ النَّبيِّ ﷺ وعدمِ تركهِ إلَّا بإذنٍ، تربيةً لهمْ علَى الأخلاقِ الحميدةِ، وأخذًا بأيديهمْ إلَى طرقِ الرَّبَّانيَّةِ كيْ يكونُوا ربَّانيينَ، فيقولُ سبحانهُ: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[النور: 62].

المعيَّةُ الممنوعةُ المنهيُّ عنهَا:

والنَّهيُ فيهَا علَى قسمينِ:

الأوَّلُ: فِي النَّهيِ عنِ الجلوسِ معَ المعاندينَ والمستهزئينَ حالَ خوضهمْ فِي آياتِ اللهِ تعالَى، وتقعُ هذهِ المعيَّةُ دائمًا بعدَ نهيٍ عنهَا وأمرٍ بمفارقةِ أصحابهَا وعدمِ شهودِ مجالسهمْ، ومنهُ قولهُ تعالَى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[الأنعام: 68].

يقولُ تعالَى ذكرهُ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: وإذَا رأيتَ يَا محمَّدُ المشركينَ الذينَ يخوضونَ فِي آياتنَا التِي أنزلناهَا إليكَ، ووحينَا الذِي أوحيناهُ إليكَ، و"خوضهمْ فيهَا"، كانَ استهزاءهمْ بهَا، وسبُّهمْ منْ أنزلهَا وتكلَّمَ بهَا، وتكذيبهمْ بهَا (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) يقولُ: فصدَّ عنهمْ بوجهكَ، وقمْ عنهمْ، ولَا تجلسْ معهمْ (حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ) يقولُ: حتَّى يأخذُوا فِي حديثٍ غيرِ الاستهزاءِ بآياتِ اللهِ منْ حديثهمْ بينهمْ وإنْ أنساكَ الشَّيطانُ نهينَا إيَّاكَ عنِ الجلوسِ معهمْ والإعراضِ عنهمْ فِي حالِ خوضهمْ فِي آياتنَا، ثمَّ ذكرتَ ذلكَ، فقمْ عنهمْ، ولَا تقعدْ بعدَ ذكركَ ذلكَ معَ القومِ الظالمينَ الذينَ خاضُوا فِي غيرِ الذِي لهمْ الخوضُ فيهِ بمَا خاضُوا بهِ فيهِ[39].

وهؤلاءِ المرادُ بهمْ المشركونَ أوِ اليهودُ أوْ أصحابُ الأهواءِ كمَا منعهُ اللهُ تعالَى منْ شهودهمْ ومخالطتهمْ عقوبةً لهمْ بالحرمانِ، وإبعادًا لهمْ عنْ أسبابِ التَّوفيقِ جزاءَ فعلهمْ، فقالَ تعالَى: ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ

[39]انظر: جامع البيان، الطبري 11/ 436 – معالم التنزيل، البغوي 2/ 301 – زاد المسير، ابن الجوزي 31/2.

الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[الأنعام: 150].

والمعنَى: (فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ) أيْ: لأنَّهمْ إنَّمَا يشهدونَ والحالةَ هذهِ كذبًا وزورًا (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) أي: يشركون به ويجعلون له عديلا[40].

والثَّاني: فِي جعلِ آلهةٍ معَ اللهِ تعالَى:

فقدْ تعدَّدتْ أساليبُ القرآنِ الكريمِ فِي بيانِ نفيِ أنْ يكونَ معَ اللهِ آلهةٌ أخرَى، فمرَّةً يأتِي البيانُ فِي صورةِ النَّفيِ ومرَّةً فِي صورةِ النَّهيِ، وثالثةً فِي صورةِ الخبرِ التهديدِي، وأخرَى فِي صورةِ الشَّرطِ، وخامسةً فِي صورةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ.

أوَّلًا: النَّفيُ الصَّريحُ:

وقدْ وردتْ آياتٌ كثيرةٌ فِي القرآنِ الكريمِ تنهَى نهيًا صريحًا عنِ اتِّخاذِ آلهةٍ معَ اللهِ تعالَى، ومنَ المواطنِ التِي وردَ فيهَا ذلكَ فِي مقامِ بيانِ وعدِ اللهِ تعالَى بالاستخلافِ للمؤمنينَ قولهُ تعالَى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ

---

[40] انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 322/3.

دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[النور: 55].

وفيهَا بيانٌ للعلاقةِ بينَ عدمِ الشِّركِ باللهِ والاستخلافِ فِي الأرضِ كمَا هوَ واضحٌ فِي الآيةِ، ووردَ كذلكَ فِي مقامِ بيانِ صفاتِ المؤمنينَ قولهِ تعالَى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾[المؤمنون: 59].

ومنهَا قولهُ تعالَى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾[الفرقان: 68].

والمعنَى: لَا يشركونَ بهِ شيئًا، بلْ يوحّدونهُ ويخلصونَ لهُ العبادَةَ والدعوةَ[41].

وقدْ وردَ فِي السُّنَّةِ فِي هذَا المعنَى: عنْ عمرٍو بنِ شرحبيلَ، عنْ عبدِ اللهِ، قالَ: "قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أيُّ الذَّنبِ أعظمُ؟ قالَ: أنْ تجعلَ للهِ ندًّا وهوَ خلقكَ، قلتُ: ثمَّ أي؟ قالَ: أنْ تقتلَ ولدكَ خشيةَ أنْ يأكلَ معكَ، قلتَ: ثمَّ أي؟ قالَ: أنْ تزانِي حليلةَ جاركَ"[42] فأُنزلَ تصديقُ قولِ النَّبيِّ ﷺ: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾[الفرقان: 68].

كمَا وردَ النَّفيُ فِي موضعٍ آخرَ فِي قولهِ تعالَى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[المؤمنون: 91].

---

[41] فتح القدير، الشوكاني 4/ 102.

[42] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه، 8/ 8.

ونلمحُ فِي سياقِ الآيةِ الكريمةِ معَ النَّفيِّ ترتيبًا عجيبًا يغرِي العقلَ بالتفكُّرِ، والذِّهنَ بالعملِ، وهوَ ترتيبُ الانفصامِ والانفصالِ بينَ هذهِ الآلهةِ المزعومةِ إنْ وجدتْ! وبينَ وجودهَا، وهذَا مَا اعتمدهُ علماءُ العقيدةِ فِي أدلَّةِ وبراهينِ نفيِ الشُّركاءِ والآلهةِ عنِ اللهِ تعالَى.

ثانيًا: النَّهيُ الصَّريحُ:

ومنْ أساليبِ القرآنِ فِي نفيِ المعيَّةِ عنِ اللهِ تعالَى: النَّهيُ الصَّريحُ، وهذَا أشدُّ فِي نفيِ المعيَّةِ وأقوَى، ومنْ هذهِ المواضعِ التِي وردَ فيهَا النَّهيُ قولهُ تعالَى: ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾[الإسراء: 22].

والمعنَى لَا تتَّخذُ معَ اللهِ إلهًا آخرَ فتصيرَ إلَى الذمِّ لأنَّكَ أسندتَ النِّعمةَ إلَى غيرِ منعمهَا وحمدتَ منْ لَا يستحقُّ الحمدَ وغمطَّ صاحبَ الفضلِ والنِّعمةِ، وساعتهَا تصيرُ مذمومًا لاختلالِ النَّظرِ لديكَ وفسادِ الحكمِ فِي ناظريكَ، ومخذولًا لأنَّ صاحبَ النِّعمةِ والمنَّةِ سيكلكَ إلَى منْ تألَّهتَ لهُ وتعبَّدتَ فيهِ، وليسَ هوَ

وقولهُ: (تَقْعُدَ) منْ قولهمْ شحذَ الشفرةَ حتَّى قعدتْ، كأنَّهَا حربةٌ بمعنَى صارتْ، يعنِي: فتصيرَ جامعًا علَى نفسكَ الذمَّ ومَا يتبعهُ منَ الهلاكِ منْ إلهكَ، والخذلانَ والعجزَ عنِ النصرةِ ممَّنْ جعلتهُ شريكًا لهُ[43].

ويبيِّنُ الإمامُ الرَّازِي سببَ هذهِ العقوبةِ الشديدةِ والجزاءَ الوفاقَ الذِي يتناسبُ معَ هذهِ الجريمةِ النُّكراءِ والعملَ الكالحَ بصورةٍ منطقيَّةٍ عقليَّةٍ فيرَى أنَّ منْ أشركَ باللهِ كانَ مذمومًا مخذولًا، والذِي يدلُّ علَى أنَّ الأمرَ كذلكَ وجوهٌ:

الأوَّلُ: أنَّ المشركَ كاذبٌ والكاذبُ يستوجبُ الذمَّ والخذلاَن.

الثَّانِي: أنَّهُ لمَّا ثبتَ بالدَّليلِ أنَّهُ لَا إلهَ ولَا مدبِّرَ ولَا مقدِّرَ إلَّا الواحدُ الأحدُ، فعلَى هذَا التَّقديرِ تكونُ جميعُ النِّعمِ حاصلةً منَ اللهِ تعالَى، فمنْ أشركَ باللهِ فقدْ أضافَ بعضَ تلكَ النِّعمِ إلَى غيرِ اللهِ تعالَى، معَ أنَّ الحقَّ أنَّ كلَّهَا منَ اللهِ تعالَى، فحينئذٍ يستحقُّ الذَّمَّ، لأنَّ الخالقَ تعالَى استحقَّ الشُّكرَ بإعطاءِ تلكَ النِّعمِ فلمَّا جحدَ كونهَا منَ اللهِ تعالَى، فقدْ قابلَ إحسانَ اللهِ تعالَى بالإساءةِ والجحودِ والكفرانِ فاستوجبَ الذَّمَّ وإنَّمَا قلنَا إنَّهُ يستحقُّ الخذلانَ، لأنَّهُ لمَّا أثبتَ شريكًا للهِ تعالَى استحقَّ أنْ يفوِّضَ أمرهُ إلَى ذلكَ الشَّريكِ، فلمَّا كانَ ذلكَ الشَّريكُ معدومًا بقيَ بلَا ناصرٍ ولَا حافظٍ ولَا معينٍ، وذلكَ عينُ الخذلانِ.

الثَّالثُ: أنَّ الكمالَ فِي الوحدةِ والنُّقصانَ فِي الكثرةِ، فمنْ أثبتَ الشَّريكَ فقدْ وقعَ فِي جانبِ النُّقصانَ واستوجبَ الذمَّ والخذلانَ، واعلمْ أنَّهُ لمَّا دلَّ لفظُ الآيةِ علَى أنَّ المشركَ مذمومٌ مخذولٌ وجبَ بحكمِ الآيةِ أنْ يكونَ الموحِّدُ ممدوحًا منصورًا[43].

ومنْ لطائفِ البيانِ القرآنيِّ هنَا، أنَّ الأمرَ علَى الرُّغمِ منْ عمومهِ وأنَّهُ موجَّهٌ إلَى كلِّ الخلائقِ إلَّا أنَّ التَّكليفَ والتَّوجيهَ أتَى بصيغةٍ الفرديَّةِ ووجَّهَ إلَى المفردِ ليحسَّ كلُّ أحدٍ أنَّهُ أمرٌ خاصٌّ بهِ، صادرٌ إلَى

---

[43] انظر: مفاتيح الغيب، الرازي 20/ 320 – تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 5/ 64.

شخصهِ، فالاعتقادُ مسألةٌ شخصيَّةٌ مسؤولٌ عنهَا كلُّ فردٍ بذاتهِ، والعاقبةُ التِي تَنتظرُ كلَّ فردٍ يحيدُ عنِ التَّوحيدِ أنْ "يَقْعُدَ" "مَذْمُومًا" بالفعلةِ الذَّميمةِ التِي أقدمَ عليهَا، "مَخْذُولًا" لَا ناصرَ لهُ، ومنْ لَا ينصرهُ اللهُ تعالَى فهوَ مخذولٌ وإنْ كثرَ ناصروهُ، ولفظُ: "فَتَقْعُدَ" يصوِّرُ هيئةَ المذمومِ المخذولِ وقدْ حطَّ بهِ الخذلانُ فقعدَ، ويلقِي ظلَّ الضَّعفِ فالقعودُ هوَ أضعفُ هيئاتِ الإنسانِ وأكثرهَا استكانةً وعجزًا، وهوَ يلقِي كذلكَ ظلَّ الاستمرارِ فِي حالةِ النَّبذِ والخذلانِ، لأنَّ القعودَ لَا يوحِي بالحركةِ ولَا تغيُّرِ الوضعِ، فهوَ لفظٌ مقصودٌ فِي هذَا المكانِ.

وهذَا التذييلُ هوَ بيانٌ لاختلافِ أحوالِ المسلمينَ والمشركينَ، فإنَّ خلاصةَ أسبابِ الفوزِ تركُ الشِّركِ لأنَّ ذلكَ هوَ مبدأُ الإقبالِ علَى العملِ الصَّالحِ فهوَ أوَّلُ خطواتِ السَّعيِ لمريدِ الآخرةِ، لأنَّ الشِّركَ قاعدةُ اختلالِ التَّفكيرِ وتضليلِ العقولِ[44].

ومنْ هذهِ المواضعِ التِي نفَى فيهَا سبحانهُ المعيَّةَ بصورةِ النَّهيِ قولهُ تعالَى: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴾ [الإسراء: 39].

والمعنَى: احذرْ أيُّهَا المكلَّفُ أنْ تتَّخذَ معَ اللهِ إلهًا غيرهُ: ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ ﴾[النحل: 51].

إنْ فعلتَ ذلكَ فقدْ حقَّ عليكَ أنْ تُرمَى وتُطرحَ فِي نارِ جهنَّمَ فِي مهانةٍ وذلَّةٍ، وأنتَ معلومٌ منْ نفسكَ علَى مَا اقترفتَ وملومٌ منَ الملائكةِ خزنةِ جهنَّمَ حينَ تعنِّفكَ[45].

---

[44]التحرير والتنوير 15/ 64.

[45]انظر: جامع البيان، الطبري 18/ 452 – التفسير الوسيط، الواحدي 5/ 758.

وَلَا يحتاجُ إِلَى بيانٍ هنَا أنَّ الخطابَ وإنْ كانَ واردًا للنَّبيِّ ﷺ إِلَّا أنَّ المرادَ بِهِ أمَّتهُ لاستحالةِ صدورِ ذلكَ منهُ فهوَ المعصومُ ﷺ[46].

ويلاحظُ أنَّ الآياتِ الكريمةِ السَّابقةِ صدرتْ بالنَّهيِ عنِ الشِّركِ وبيانِ أنَّ اللهَ تعالَى قضَى بأنْ لَا يُعبدَ إِلَّا إيَّاهُ، وكرَّرَ النَّهيَ هنَا للتَّنبيهِ علَى أنَّ التَّوحيدَ مبدأُ الأمرِ ومنتهاهُ، فإنَّ منْ لَا قصدَ لهُ بطلَ عملهُ ومنْ قصدَ بفعلهِ أوْ تركهِ غيرهُ ضاعَ سعيهُ، وأنَّهُ رأسُ الحكمةِ وملاكهَا، ورتَّبَ عليهِ أوَّلًا مَا هوَ عائدةُ الشِّركَ فِي الدُّنيَا وثانيًا مَا هوَ نتيجتهُ فِي العقبَى فقالَ تعالَى: (فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلوْمًا) تلومَ نفسكَ[47].

ومنْ لطائفِ النَّصِّ القرآنيِّ البديعِ مَا ذكرهُ الإمامُ الشَّوكانيُّ بأنَّ القرآنَ راعَى فِي هذَا التَّأكيدِ دقيقةُ فرتَّبَ علَى الأوَّلِ كونهُ مذمومًا مخذولًا، وذلكَ إشارةٌ إِلَى حالِ الشِّركِ فِي الدُّنيَا، ورتَّبَ علَى الثَّانِي أنَّهُ يُلقَى فِي جهنَّمَ ملومًا مدحورًا وذلكَ إشارةٌ إِلَى حالهِ فِي الآخرةِ، وفِي القعودِ هناكَ، والإلقاءُ هنَا، إشارةٌ إِلَى أنَّ للإنسانِ فِي الدُّنيَا صورةُ اختيارٍ بخلافِ الآخرةِ[48].

ومنهَا قولهُ تعالَى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾[الشعراء: 213].

ونلاحظ هنا شدة النهي وترتب العذاب على الاتخاذ إن وجد، مع ذكرنا منهجية القرآن في خطاباته للنبي ﷺ والتي غالبا ما تصدر بما يشعر بأنها ليست عتابا مثل قولهِ تعالَى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾[التوبة: 43] وقولهِ: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾[عبس: 1].

---

[46] تفسير السمعاني 3/ 243 – معالم التنزيل، البغوي 3/ 135.

[47] تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 5/ 77.

[48] فتح القدير، الشوكاني 3/ 272.

بصيغةِ الغائبِ، والخطابُ هنَا واردٌ علَى تحذيرِ غيرهِ مبالغةً بذكرهِ هوُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، كأنَّ القرآنَ يقولُ: إذَا كانَ هذَا تهديدنَا ووعيدنَا لكَ فكيفَ يكونُ لغيركَ.

كمَا قالَ الإمامُ القرطبيُّ: المعنَى قلْ لمنْ كفرَ هذَا القولَ تهديدًا لهُ بالتَّعذيبِ، وقيلَ: هوَ مخاطبةٌ لهُ عليهِ الصَّلاةُ السَّلامُ وإنْ كانَ لَا يفعلُ هذَا، لأنَّهُ معصومٌ مختارٌ ولكنَّهُ خوطبَ بهذَا والمقصودُ غيرهُ، ودلَّ علَى هذَا قولهُ تعالَى: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾[الشعراء: **214**].

أيْ: لَا يتَّكلونَ علَى نسبهمْ وقرابتهمْ فيدعونَ مَا يجبُ عليهمْ[49].

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا يحذِّرُ بهِ غيرهُ، يقولُ: أنتَ أكرمُ الخلقِ عليَّ، ولوِ اتَّخذتَ إلهًا غيرِي لعذَّبتكَ[50].

ووردَ التَّركيبُ بهذهِ الصُّورةِ فخوطبَ بهِ النَّبيُّ ﷺ معَ ظهورِ استحالةِ صدورِ المنهيِّ عنهُ منهُ ﷺ تهييجًا وحثًّا علَى ازديادِ الإخلاصِ ولطفًا لسائرِ المكلَّفينَ ببيانِ أنَّ الإشراكَ منَ القبحِ والسُّوءِ بحيثُ ينهَى عنهُ منْ لَا يمكنُ صدورهُ عنهُ فكيفَ بمنْ عداهُ[51].

ثالثا: الاستفهامُ الإنكاريُّ:

ومنْ أساليبِ القرآنِ فِي إنكارِ الآلهةِ معَ اللهِ تعالَى، استعمالُ الاستفهامِ الإنكاريِّ:

[49]انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي 13/ 142 – مدارك التنزيل، النسفي 2/ 586.
[50]انظر: معالم التنزيل، البغوي 3/ 380 – تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص 598.
[51]انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود 267/6 – التحرير والتنوير، ابن عاشور 200/19.

وقدْ وردَ هذَا فِي مواطنَ متعدِّدةٍ منَ القرآنِ الكريمِ، كقولهِ تعالَى: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُلْ لَا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[الأنعام: 19].

والمعنَى: يقولُ تعالَى ذكرهُ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: قلْ لهؤلاءِ المشركينَ، الجاحدينَ نبوَّتكَ، العادلينَ باللهِ، ربًّا غيرهُ: (أَئِنَّكُمْ) أيُّهَا المشركونَ (لَتَشْهَدُوْنَ أَنَّ مَعَ اللهِ ءالِهَةً ألإِخْرَى) يقولُ: تشهدونَ أنَّ معهُ معبوداتٍ غيرهُ منَ الأوثانِ والأصنامِ، (أوِ الأشخاصِ والحيواناتِ).

ثمَّ قالَ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: (قُلْ) يَا محمَّدُ (لَا أَشْهَدُ) بمَا تشهدونَ: أنَّ معَ اللهِ آلهةً أخرَى، بلْ أجحدُ ذلكَ وأنكرهُ فإنَّمَا هوَ معبودٌ واحدٌ، لَا شريكَ لهُ فيمَا يستوجبُ علَى خلقهِ منَ العبادةِ، وقلْ: (وَإِنَّنِي بَرِيئٌ) منْ كلِّ شريكٍ تدعونهُ للهِ، وتضيفونهُ إلَى شركتهِ، وتعبدونهُ معهُ، لَا أعبدُ سوَى اللهِ شيئًا، ولَا أدعُو غيرهُ إلهًا[52].

إنَّهُ لمَّا بيَّنَ تعالَى شهادتهُ التِي هيَ أكبرُ الشَّهاداتِ علَى توحيدهِ قالَ: قلْ لهؤلاءِ المعارضينَ لخبرِ اللهِ تعالَى والمكذِّبينَ لرسلهِ: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُلْ لَا أَشْهَدُ ﴾ أي: إنْ شهدُوا فلَا تشهدْ معهمْ.

[52] جامع البيان، الطبري 11/ 292.

فوازنَ بينَ شهادةَ أصدقِ القائلينَ وربِّ العالمينَ وشهادةَ أزكَى الخلقِ المؤيِّدةِ بالبراهينِ القاطعةِ والحججِ السَّاطعةِ علَى توحيدِ اللهِ تعالَى وحدهُ لَا شريكَ لهُ وشهادةُ أهلِ الشِّركِ الذينَ مرجتْ عقولهمْ وأديانهمْ وفسدتْ آراؤهمْ وأخلاقهمْ وأضحكُوا علَى أنفسهمْ العقلاءَ.

بلْ خالفُوا بشهادةِ فطرهمْ وتناقضتْ أقوالهمْ علَى إثباتِ أنَّ معَ اللهِ تعالَى آلهةً أخرَى معَ أنَّهُ لَا يقومُ علَى مَا قالوهُ أدنَى شبهةٍ فضلًا عنِ الحججِ، واخترْ لنفسكَ أيُّ الشَّهادتينِ إنْ كنتَ تعقلُ ونحنُ نختارُ لأنفسنَا مَا اختارهُ اللهُ تعالَى لنبيِّهِ ﷺ الذِي أمرنَا اللهِ تعالَى بالاقتداءِ بهِ فقالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: منفردٌ لَا يستحقُّ العبوديَّةَ والإلهيَّةَ سواهُ كمَا أنَّهُ المنفردُ بالخلقِ والتَّدبيرِ[53](والملكِ).

وهذَا تقريرٌ لهمْ معَ إنكارٍ واستبعادٍ قلْ لَا أشهدُ شهادتكمْ[54]

ففيهِ إنكارٌ عليهمْ وتوبيخٌ وتقريعٌ[55].

---

[53]تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص 253.

[54]انظر: الكشاف، الزمخشري 2/ 11 – زاد المسير، ابن الجوزي 2/ 15.

[55]الجامع لأحكام القرآن، القرطبي 6/ 399.

رابعا: الخبرُ التَّهديدِي:

ولقدْ تنوَّعتْ أساليبُ القرآنِ فِي نفيِ وجودِ آلهةً معَ اللهِ تعالَى، ومنْ هذهِ الأساليبِ: الخبرُ التَّهديديُّ، وتكرَّرَ هذَا فِي القرآنِ الكريمِ مرَّاتٍ عديدةٍ، ومنْ هذَا قولهُ تعالَى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[الحجر: 95 – 96].

وواضحٌ فِي الآيةِ الكريمةِ بلاغةُ التَّهديدِ، وشدَّةِ الوعيدِ خاصَّةً فِي قولهِ تعالَى: (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ).

والمعنَى أنَّ اللهَ تعالَى يقولُ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: إنَّا كفيناكَ المستهزئينَ يَا محمَّدُ، الذينَ يستهزئونَ بكَ ويسخرونَ منكَ، فاصدعْ بأمرِ اللهِ، ولَا تخفْ شيئًا سوَى اللهِ، فإنَّ اللهَ كافيكَ منْ ناصبكَ وآذاكَ كمَا كفاكَ المستهزئينَ[56].

وفِي الآيةِ تسليةٌ لهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتهوينًا للخطبِ عليهِ، بأنَّهمْ أصحابُ تلكَ الجريمةِ العظمَى، التِي هيَ أكبرُ الكبائرِ، التِي سيُخذلونَ بسببهَا، كمَا قالَ: (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) أي: عاقبةَ أمرهمْ، وفِي الآيةِ وعيدٌ شديدٌ لمنْ جعلَ معهُ تعالَى معبودًا آخرَ، وقدْ أشارَ كثيرٌ منَ المفسِّرينَ إلَى أنَّ قولهُ تعالَى: (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) عنَى بهِ مَا عجَّلهُ منْ إهلاكهمْ[57].

ومنَ الآياتِ التِي حملتْ الخبرَ التَّهديدِي لمنْ يجعلْ معَ اللهِ آلهةً أخرَى، قولهُ تعالَى: ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾[المؤمنون: 117].

---

[56] جامع البيان، الطبري 17/ 153.

[57] محاسن التأويل، القاسمي 6/ 346.

والمعنَى: ومنْ يدعُ معَ اللهِ إلهًا آخرَ لَا برهانَ لهُ بهِ، أي: لَا حجَّةَ ولَا بيِّنةَ لهُ، بهِ لأنَّهُ لَا حجَّةَ فِي دعوَى الشِّركِ (فَإِنَّمَا حِسَابُهُ)، جزاؤهُ عندَ ربِّهِ يجازيهِ بعملهِ[58].

والمعنَى الذِي لهُ عندَ ربِّهِ، أنَّهُ لَا يفلحُ (فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) فيجازيهِ عليهِ كمَا قالَ:(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)[الغاشية: 26][59].

وفِي الآيةِ إنذارٌ لكلِّ منْ يدعُو معَ اللهِ إلهًا آخرَ ويشركهُ معهُ فِي الاتِّجاهِ والعبادةِ بدونِ برهانٍ، فحسابهُ عندَ ربِّهِ ولنْ يلقَى فلاحًا[60].

خامسا: أسلوبُ الشَّرطِ:

ومنْ أساليبِ القرآنِ الكريمِ فِي النَّهيِ عنِ اتِّخاذِ آلهةٍ معَ اللهِ، وبيانِ أنَّهَا شركٌ: أسلوبُ الشَّرطِ، قالَ تعالَى فِي موضعٍ: ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾[المؤمنون: 117].

وفِي الآيةِ الكريمةِ منَ التَّهديدِ والوعيدِ مَا فيهِ، ومنَ التَّعبيرِ القرآنيِّ البديعِ: (فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) غايةٌ فِي التَّهديدِ والوعيدِ، واختيارِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ التِي تُشعرُ باللَّومِ والعتابِ علَى عدمِ رعايةِ العبدِ لهذهِ الرُّبوبيَّةِ، وخلطهَا بغيرهَا، وعدمِ عرفانِ العبدِ بهَا مبيَّنٌ أيْ بيانٌ عنْ عدمِ توفيقِ هذَا الذِي يستجلبُ علَى نفسهِ

---

[58] معالم التنزيل، البغوي 3/ 378.

[59] انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج 4/ 25.

[60] التفسير الحديث، محمد عزت 5/ 338.

غضبَ ربِّهِ والرَّبُّ بصفاتهِ يعمُّ بفضلهِ مخلوقاتهِ، ويشملُ بفيضهِ جميعَ الكائناتِ، فالمحرومُ منْ حُرِمَ هذهِ الرَّحمةَ علَى سعتهَا، والمغبونُ منْ جانبهُ هذَا الفضلَ علَى اتِّساعهِ وعمومهِ، والمخذولُ منْ خلاهُ هذَا التَّوفيقُ الرَّبَّانيُّ.

وقولهُ: (لَا بُرْهَانَ لهُ) معَ أنَّهُ معلومٌ أنَّهُ لَا يمكنُ أنْ يكونَ لهُ برهانٌ مشعرٌ بأنَّهُ ليسَ لديهِ أيَّ دليلٍ ولوْ كانَ الدَّليلُ وهميًّا علَى اتِّخاذِ هذَا معَ اللهِ تعالَى، فهوَ لَا حجَّةَ لهُ بالكفرِ ولَا عذرٍ يومَ القيامةِ، كمَا أنَّ تركيبَ الجملةِ بهذهِ الصُّورةِ، وورودِ الخاتمةِ: (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) هذَا الورودُ مشعرٌ بأنَّهُ جوابٌ لسؤالٍ سابقٍ أوْ مستترٍ كأنَّهُ قيلَ: لمَ كلُّ هذَا؟ فقيلَ: لأنَّهُ لَا يفلحُ الكافرونَ.

يقولُ الإمامُ البيضاويُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ) يعبدهُ إفرادًا أوْ إشراكًا (لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ) صفةٌ أخرَى لـ (إِلَهًا) لازمةٌ لهُ فإنَّ الباطلَ لَا برهانَ بهِ، جيءَ بهَا للتَّأكيدِ وبناءِ الحكمِ عليهِ تنبيهًا علَى أنَّ التَّديُّنَ بمَا لَا دليلَ عليهِ ممنوعٌ فضلًا عمَّا دلَّ الدَّليلُ علَى خلافهِ، أوِ اعتراضٍ بينَ الشَّرطِ والجزاءِ لذلكَ: (فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) فهوَ مُجازٌ لهُ مقدارُ مَا يستحقُّه[61].

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾[الإسراء: 42].

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: قلْ لأهلِ مكَّةَ لوْ كانَ معهُ آلهةٌ كمَا يقولونَ منَ الأوثانِ، إذًا لابتغَوا إلَى ذِي العرشِ سبيلًا، أي: طريقًا وكانُوا كهيئتهِ، وقالَ قتادةُ: أي يعرفُوا فضلَ ذِي العرشِ ومرتبتهُ عليهِمْ، ويقالُ: ابتغُوا

[61] انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي 3/ 97 – محاسن التأويل، القاسمي 7/ 306.

طريقًا للوصولِ إليهِ، وقالَ مقاتلٌ: لطلبُوا سبيلًا ليقهروهُ كفعلِ الملوكِ بعضهمْ بعضًا، ثمَّ نزَّهَ نفسهُ عنِ الشَّريكِ، فقالَ تعالَى: سبحانهُ، أي:تنزيهًا لهُ وتعالَى عمَّا يقولونَ، أي: عمَّا يقولُ الظَّالمونَ إنَّ معهُ شريكًا، علوًّا كبيرًا، أي: بعيدًا عمَّا يقولُ الكفَّارُ[62].

وهذَا تنزيهٌ منَ اللهِ تعالَى ذكرهُ نفسهُ عمَّا وصفهُ بهِ المشركونَ، الجاعلونَ معهُ آلهةً غيرهُ، المضيفونَ إليهِ البناتَ، فقالَ: تنزيهًا للهِ وعلوًّا لهُ عمَّا تقولونَ أيُّهَا القومُ، منَ الفريةِ والكذبِ، فإنَّ مَا تضيفونَ إليهِ منْ هذهِ الأمورِ ليسَ منْ صفتهِ، ولَا ينبغِي أنْ يكونَ لهُ صفةٌ[63]

وهكذَا تتنوَّعُ أساليبُ القرآنِ الكريمِ فِي نفيِ وجودِ آلهةٍ معَ اللهِ تعالَى، وسبحانَ منْ عزَّ عنِ النَّظيرِ والشَّبيهِ وتعالَى عنِ الندِّ والمثيلِ.

آثارُ المعيَّةِ الإلهيَّةِ:

للمعيَّةِ أثرٌ لَا يُنكرهُ عاقلٌ، وفضلٌ لَا يخفَى علَى متدبِّرٍ، فمعيَّةُ اللهِ تعالَى سرُّ النَّجاحِ ولبُّ الفلاحِ، ومدارُ الهدايةِ والتَّوفيقِ، والنَّصرِ والتَّأييدِ، والحفظِ والرِّعايةِ والحياطةِ والعنايةِ، فمنْ كانَ اللهُ تعالَى معهُ فمنْ يكونُ عليهِ، ومنْ كانَ اللهُ تعالَى عليهِ فمنْ يكونُ معهُ.

وقدْ قالَ قتادةُ: منْ يتَّقِ اللهَ يكنْ معهُ، ومنْ يكنِ اللهُ معهُ فمعهُ الفئةُ التِي لَا تُغلبُ، والحارسُ الذِي لَا ينامُ، والهادِي الذِي لَا يضلُّ[64].

---

[62] انظر: تفسير السمرقندي 2/ 312.

[63] انظر: جامع البيان، الطبري 17/ 453 – التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي 1/ 447.

[64] انظر: حلية الأولياء، أبو نعيم 2/340.

فمنْ آثارِ المعيَّةِ، أوَّلًا: المراقبةُ:

فالمراقبةُ منْ أهمِّ آثارِ المعيَّةِ، سواءٌ كانتِ المراقبةُ منْ قِبَلِ العبدِ لربِّهِ أمْ منَ اللهِ تعالَى لعبدهِ، وإنْ كانَ الأغلبُ فيهَا مراقبةُ العبدِ لربِّهِ ونظرِهِ لهُ ومشاهدتهِ إيَّاهُ فِي أعمالهِ وسلوكهِ، والمقصودُ منَ المراقبةِ: استدامةُ علمِ العبدِ باطِّلاعِ الربِّ عليهِ فِي جميعِ أحوالهِ[65].

وهوَ حينَ يتحقَّقُ بهذهِ الصِّفةِ ويتحلَّى بهذَا الخلقِ، يصلُ إلَى معانٍ تملأُ عليهِ نفسهُ بالخيرِ والرِّضَا واليقينِ والثَّباتِ، فهوَ فِي معيَّةِ اللهِ تعالَى يشعرُ بمراقبةِ اللهِ تعالَى لهُ فَيَجِّلُهُ عنْ أنْ يراهُ علَى غيرِ مَا يرضيهِ، أوْ يتفقدهُ فيمَا يرضيهِ، وهذَا المعنَى هوَ الواردُ فِي حديثِ الإيمانِ، إذْ يقولُ الرَّسولُ لجبريلَ عليهمَا الصَّلاةُ والسَّلامُ حينمَا سألهُ عنِ الإحسانِ: "أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ، فإنْ لمْ تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ[66].

وقدْ غرستْ آياتُ المعيَّةِ الواردةِ فِي القرآنِ الكريمِ هذَا المعنَى فِي نفوسِ المؤمنينَ بصورٍ شتَّى، وألوانٍ متعدِّدةٍ، ومنْ هذهِ الآياتِ الكريمةِ قولهُ تعالَى لموسَى وهارونَ: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى * قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾[طه: 43 – 46].

---

[65]التعريفات، الجرجاني ص 210.

[66]أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل، 1/19، رقم 50 – ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، 1/ 39، رقم 9.

أي: إنَّنِي معكمَا بحفظِي وكلاءتِي ونصرِي وتأييدِي فلَا تخافَا منهُ، فإنَّنِي معكمَا أسمعُ كلامكمَا وكلامهُ، وأرَى مكانكمَا ومكانهُ، لَا يخفَى عليَّ منْ أمركمْ شيءٌ، واعلمَا أنَّ ناصيتهُ بيدِي، فلَا يتكلَّمُ ولَا يتنفَّسُ ولَا يبطشُ إلَّا بإذنِي وبعدَ أمرِي، وأنَا معكمَا بحفظِي ونصرِي وتأييدِي[67].

وفِي هذَا طمأنةٌ لهمَا بأنَّ فرعونَ ليسَ بالذِي يصلُ إلَى قتلهمَا حتَّى يبلِّغَا الرسالةَ، وأرادَ بذلكَ سبحانهُ تقويةَ قلوبهمَا وأنَّهُ متولٍّ لحفظهمَا وكلاءتهمَا[68].

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ فِي معنَى الآيةِ الكريمةِ: أسمعُ دعاءكمَا فأجيبهُ، وأرَى مَا يرادُ بكمَا فأمنعهُ[69].

ولذَا قالَ موسَى عليهِ السَّلامُ: الآنَ لَا أبالِي بعدمَا أنتَ معِي[70].

قالَ: (لَا تَخَافَا) أي: منْ فرطهِ وطغيانهِ (إِنَّنِي مَعَكُمَا) أي: بالحفظِ والنُّصرةِ (أَسْمَعُ وَأَرَى) أي: مَا يجرِي بينكمَا وبينهُ، فأرعاكمَا بالحفظِ[71].

وقدْ دلَّ اللهُ تعالَى عبادهُ علَى تصوُّرِ هذهِ المعيَّةِ منْ خلالِ تعريفهمْ أنَّ عليهمْ حافظينَ، كرامًا كاتبينَ، فليكرموهمْ وليراقبُوا أنفسهمْ فِي ضوءِ معرفةِ هؤلاءِ الكرامِ بهمْ.

ولذَا قالَ صاحبُ لطائفِ الإشاراتِ: حشمتهمْ منِ اطِّلاعِ الحقِّ، ولوْ علمُوا ذلكَ حقَّ العلمِ لكانَ توقِّيهمْ عنِ المخالفاتِ لرؤيتهِ سبحانهُ، واستحياؤهمْ منِ اطِّلاعهِ– أتمُّ منْ رؤيةِ الملائكةِ[72].

---

[67] انظر: تفسير القرآن العظيم 6/ 124 – 5/261.

[68] انظر: تفسير يحيى بن سلام 1/ 261 – فتح القدير، الشوكاني 4/ 111.

[69] انظر: التفسير الوسيط، الواحدي، معالم التنزيل، البغوي 5/ 276.

[70] لطائف الإشارات، القشيري 2/ 458.

[71] محاسن التأويل، القاسمي 7/ 127.

[72] لطائف الإشارات 3/ 698.

ثانيًا: النَّصرُ والتَّأييدُ:

ومنْ آثارِ المعيَّةِ نصرُ اللهِ تعالَى لعبدهِ الذِي يكونُ فِي معيَّتهِ، وتأييدهِ لهُ، وقدْ نصَّتْ آياتُ القرآنِ الكريمِ علَى هذَا الأثرِ منْ آثارِ المعيَّةِ، فاللهُ تعالَى يمدُّ عبيدهُ بنصرهِ ويؤيِّدهمْ بهِ، ومنْ هنَا دعاهمْ إلَى عدمِ الهوانِ أوِ التَّفريطِ والتَّسليمِ والتَّنازلِ والتَّخاذلِ، فهمْ أُولُو المعيَّةِ وأصحابِ نصرِ اللهِ تعالَى وتأييدهِ.

قالَ تعالَى آمرًا عبادهُ بمراعاةِ أثرِ هذهِ المعيَّةِ منَ النَّصرِ والتَّأييدِ: ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾[محمد: 35].

والمعنَى: أنتمُ الأعلونَ بالنُّصرةِ، وهوَ تعالَى معكمُ بالحفظِ، والمعونةِ[73] والتَّأييدِ والتَّسديدِ، ومنْ كانَ اللهُ تعالَى معهُ بنصرهِ فمنْ يغلبهُ، ومنْ كانَ معهُ بتأييدهِ فمنْ يعلوهُ، ومنْ كانَ معهُ بتسديدهِ فمنْ يصرفهُ عنْ طريقِ الهدَى، أوْ يشغبَ علَى منهاجهِ المستقيمِ؟

كمَا أنَّ فِي ذلكَ لكلِّ منْ غُلبَ علَى حقِّهِ، وأوذيَ فِي اللهِ تعالَى أنْ يستصحبَ معيَّةَ اللهِ تعالَى ويتحقَّقَ بهَا، ففيهَا بشارةٌ عظيمةٌ بالنَّصرِ والظَّفرِ علَى الأعداءِ، وقدْ قالَ تعالَى فِي الآيةِ نفسهَا: (وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ)، أي: ولنْ يحبطهَا ويبطلهَا ويسلبكمْ إيَّاهَا بلْ يوفِّيكمْ ثوابهَا ولَا ينقصكمْ منهَا شيئًا[74].

وشعورهمْ بأنَّ اللهَ تعالَى معهمْ بالعونِ، والنَّصرِ، والتَّأييدِ، موجبٌ لقوَّةِ قلوبهمْ، وإقدامهمْ علَى عدوِّهمْ[75].

---

[73] انظر: تفسير السمعاني 5/ 185 – زاد المسير 4/ 123.

[74] تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 7/ 299.

[75] تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص 790.

ولذلكَ رأينَا رؤوسَ المصلحينَ والدُّعاةِ الصادقينَ علَى تباعدِ المكانِ وتطاولِ الزّمانِ فِي أتونِ المحنةِ يهشونَ للعطاءِ ويستروحونَ نسائمَ المنحِ، فنسمعُ شيخَ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ رحمةُ اللهُ تعالَى فِي محنتهِ يقولُ: مَا يصنعُ أعدائِي بِي؟ أنَا جنَّتِي وبستانِي فِي صدرِي، إنْ رحتَ فهيَ معِي لَا تفارقنِي، إنَّ حبسِي خلوةٌ، وقتلِي شهادةٌ، وإخراجِي منْ بلدِي سياحةٌ.

وكانَ يقولُ فِي محبسهِ فِي القلعةِ: لوْ بذلتُ لهمْ ملءَ هذهِ القلعةِ ذهباً مَا عدلَ عندِي شكرَ هذهِ النِّعمةِ، وكانَ يقولُ فِي سجودهِ وهوَ محبوسٌ: اللَّهمَّ أعنِّي علَى ذكركَ وشكركَ وحسنِ عبادتكَ، وقالَ مرَّةً: المحبوسُ منْ حبسَ قلبهُ عنْ ربِّهِ تعالَى، والمأسورُ منْ أسرهُ هواهُ[76].

وفِي اشتدادِ الصِّراعِ بينَ الحقِّ والباطلِ، وهوَ سنَّةٌ منْ سننِ اللهِ الجاريةِ، والتِي لَا تتبدَّلُ ولَا تتحوَّلُ ينبِّههمْ سبحانهُ علَى معيَّتهِ لهمْ المقتضيةِ للنَّصرِ والعونِ والتَّأييدِ والتَّسديدِ، فيقولُ: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[التوبة: 36].

وفِي حلقةٍ منْ حلقاتِ الصِّراعِ بينَ الحقِّ والباطلِ، يُبيِّنُ عزَّ وجلَّ أنَّ معيَّتهُ ونصرهُ وتأييدهُ معَ عبادهِ الصَّابرينَ فيقولُ: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٤٩].

---

[76] المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمية 1/ 135 – الوابل الصيب ص 48.

وهذَا إعلامٌ منهُ تعالَى ذكرهُ عبادهُ المؤمنينَ بهِ أنَّ بيدهِ النَّصرُ والظَّفرُ والخيرُ والشَّرُّ[77].

وأنَّ هذَا النَّصرَ ليسَ بهمْ بلْ بإذنِ اللهِ تعالَى، بمشيئتهِ وعونهِ ونصرتهِ، واللهُ معَ الصَّابرينَ بالنُّصرةِ والتَّأييدِ والقوَّةِ والمعونةِ[78].

وأعظمُ جالبٍ لمعونةِ اللهِ تعالَى صبرُ العبدِ للهِ، فوقعتْ موعظتهُ فِي قلوبهمْ وأثرتْ معهمْ[79].

وقدْ تكرَّرَ هذَا المعنَى فِي القرآنِ الكريمِ، ومنهُ فِي مقامِ دفعِ الكفَّارِ والحملةِ عليهمْ يَرِدُ قولهُ تعالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[التوبة: 123].

وقدْ قالَ بعضُ الصَّحابةِ: إنَّمَا تقاتلونَ النَّاسَ بأعمالكمْ وأهلهَا همُ المجدُّونَ فِي طرقِ الحقِّ، فوعدَ تعالَى أنَّهُ معَ أهلِ التَّقوَى ومنْ كانَ اللهُ معهُ فلنْ يُغلبَ[80].

ومنْ روائعِ صاحبِ تفسيرِ المنارِ وبدائعهِ؛ أنْ يربطَ معنَى التَّقوَى للهِ تعالَى بالسُّننِ، فيرَى أنَّ تقواهُ تعنِي أيضًا مراعاتهُ فِي أحكامهِ وسننهِ، حتَّى يستجلبَ نصرهُ وتُستدعَى معونتهُ، فيرَى أنَّ المتَّقينَ هنَا همُ المتَّقونَ لهُ فِي مراعاةِ أحكامهِ وسننهِ بالمعونةِ والنَّصرِ، وأهمِّهَا مَا يجبُ اتِّقاؤهُ فِي الحربِ، منَ التَّقصيرِ فِي أسبابِ النَّصرِ والغلبِ التِي بيَّنهَا فِي كتابهِ، والتِي تُعرفُ بالعلمِ والتَّجاربِ، كإعدادِ مَا يُستطاعُ منْ

---

[77] جامع البيان، الطبري 5/ 316.

[78] انظر: لطائف الإشارات، القشيري 1/ 194.

[79] تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص 108.

[80] انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية 3/ 98 – فتح القدير، الشوكاني 2/ 484.

قوَّةٍ، والصَّبرِ والثَّباتِ، والطَّاعةِ والنِّظامِ، وتركِ التَّنازعِ والاختلافِ، وكثرةِ ذكرِ اللهِ تعالَى، والتوكُّلِ عليهِ فيمَا وراءَ الأسبابِ[81].

وفِي معيَّتهِ تعالَى للملائكةِ يؤيِّدهمْ وينصرهمْ، ويعينهمْ ويثبِّتهمْ، ويأمرهمْ بتثبيتِ المؤمنينَ ونصرهمْ إذْ يقولُ تعالَى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[الأنفال: 12 – 13].

وفِي هذَا تعهُّدٌ منَ اللهِ تعالَى بإعانةِ أهلِ الإيمانِ الحقِّ، وبنصرتهمْ علَى غيرهمْ ولوْ كانُوا ثلَّةً قليلةً، مَا تمسَّكُوا بإيمانهمْ وثبتُوا علَى دينهمْ، وكانتْ صلتهمْ باللهِ تعالَى موصولةً غيرَ مقطوعةٍ[82].

والمعنَى: إنِّي أعينكمْ علَى تنفيذِ مَا آمركمْ بهِ منْ تثبيتهمْ علَى قلوبهمْ، حتَّى لَا يفرُّوا منْ أعدائهمْ علَى كونهمْ يفوقونهمْ عَدَدًا وعُدَدًا ومَدَدًا – إعانةَ حاضرٍ معكمْ لَا يخفَى عليهِ ولَا يعجزهُ شيءٌ منْ إعانتكمْ، والوعدُ بالإعانةِ وحدهُ لَا يفيدُ هذَا المعنَى كلِّهِ، ففِي المعيَّةِ معنَى زائدٌ علَى أصلِ الإعانةِ نعقلُ منهُ مَا ذُكِرَ، ولَا نعقلُ كنْهَهُ[83] وصفتهُ[84].

---

[81] تفسير المنار، محمد رشيد رضا 11/ 66.

[82] التيسير في أحاديث التفسير 2/ 314.

[83] الكنه: جوهر الشيءِ وحقيقتهُ (معجم المعاني)

[84] تفسير المنار 10/ 107.

ومعنَى (أَنِّي مَعَكُمْ) أي: بالعونِ والنَّصرِ والتَّأييدِ، (فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءامَنُوا) أي: ألقُوا فِي قلوبهِمْ، وألهموهمْ الجراءةَ علَى عدوِّهمْ، ورغِّبوهمْ فِي الجهادِ وفضلهِ[85].

ثالثًا: التَّوفيقُ والمحبَّةُ:

ومنْ ثمراتِ المعيَّةِ: التَّوفيقُ والمحبَّةُ، والدَّلالةُ علَى سبلِ الرَّشادِ، وطرقِ الهدايةِ، وتلكَ لهَا مقدِّماتهَا التِي تفضِي إلَى نتائجهَا، وأسبابهَا التِي تعينُ علَى الوصولِ إليهَا.

وقدْ قالَ تعالَى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[العنكبوت: 29].

إنَّ هذهِ المعيَّةِ التِي أدَّتْ إلَى الهدايةِ والتَّوفيقِ والمحبَّةِ ليستْ منْ فراغٍ، بلْ بُنيتْ علَى جهادٍ ومجاهدةٍ، وصبرٍ ومصابرةٍ، ودلالة قولهِ تعالَى (فِينَا) علَى جهةِ الجهادِ وصدقِ النيَّةِ فيهِ وتمحُّضِ المقصودِ بهِ مَا فيهِ، ومعنَى المعيَّةِ هنَا: بالعونِ والنَّصرِ والهدايةِ[86].

وإذَا تتبَّعنَا أقوالَ المفسِّرينَ فِي دلالةِ المعيَّةِ هنَا وجدنَا أكثرهمْ يركِّزُ علَى أنَّ المقصودَ بهَا هوَ النَّصرُ، والمقامُ هنَا ليسَ مقامَ صراعٍ بينَ فئتينِ، بلْ صراعٌ بينَ النَّفسِ البشريَّةِ ومتطلِّباتهَا، أوْ صراعٌ بينَ المحبوبِ والمكروهِ، والنَّصرُ هنَا هوَ نصرُ الهدايةِ والتَّوفيقِ والدَّلالةِ علَى سلامةِ المنحَى وصحَّةِ الطَّريقِ.

---

[85] تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص 316.

[86] المصدر السابق ص 636.

ولذَا قالَ الإمامُ الشَّوكانيُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: المعيَّةُ هنَا بالنَّصرِ والعونِ، ومنْ كانَ معهُ لمْ يُخذلْ[87].

رابعًا: الحفظُ والرِّعايةُ:

ومنْ ثمراتِ المعيَّةِ كذلكَ حفظُ اللهِ تعالَى ورعايتهُ لمنْ كانَ فِي معيَّتهِ.

وتبدُو هذهِ المعيَّةُ وتظهرُ آثارهَا فِي الحفظِ والرِّعايةِ فِي مقامِ الدَّعوةِ فيبيِّنُ لهمْ تعالَى أنَّهُ حافظهمْ وراعيهمْ؛ حتَّى يطمئنَّ أصحابُ الدَّعواتِ والذينَ يكونونَ فِي معيَّتهِ تعالَى أنَّهمْ محفوظونَ ومراعونَ منْ قبلِ ربِّهمْ، فهو ناصرهمْ ومعينهمْ ومؤيِّدهمْ ومثبِّتهمْ، كمَا قالَ تعالَى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾[النحل: 127 – 128].

والمقصودُ منْ معيَّتهِ تعالَى هنَا أنَّهُ سبحانهُ يعينهمْ ويحفظهمْ منْ مكرِ الأعداءِ بهمْ، وينصرهمْ عليهمْ، فهيَ معيَّةُ رعايةٍ وحفظٍ[88].

ودلَّتْ آياتٌ كثيرةٌ علَى هذَا المعنَى منهَا قولهُ تعالَى فِي حقِّ النَّبيِّ ﷺ وصاحبهِ إذْ همَا فِي الغارِ: ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ

---

[87] انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل 15/ 380.

[88] انظر: معاني القرآن، الزجاج 3/ 224 – التفسير الوسيط، الواحدي 5/ 708.

إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة: 40].

وأيُّ فضلٍ أعظمُ منْ هذهِ المعيَّةِ التِي يُنالُ بهَا صاحبهَا السَّكينةُ والتَّأييدُ وعلوِّ الكلمةِ وأصبحَ فِي جوارِ العزيزِ الحكيمِ، ومعنى (إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا): أي: بالنَّصرِ والرِّعايةِ والحفظِ والكلاءةِ[89].

والمعنَى: (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ) أي: إنْ لمْ تنصروهُ فسينصرهُ اللهُ كمَا نصرهُ، (إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ) ولمْ يكنْ معهُ إلَّا رجلٌ واحدٌ، أوْ إنْ لمْ تنصروهُ فقدْ أوجبَ اللهُ تعالَى لهُ النَّصرَ حتَّى نصرهُ فِي مثلِ ذلكَ الوقتِ فلنْ يخذلهُ فِي غيرهِ، (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ) وهوَ أبُو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) بالعصمةِ والمعونةِ[90].

وتلكَ سنَّةُ اللهِ تعالَى فِي رسلهِ وأنبيائهِ، وهيَ ماضيةٌ معَ عبادهِ المؤمنينَ الذينَ نالُوا شرفَ معيَّتهُ عزَّ وجلَّ، فكمَا كانَ للمعيَّةِ أثرُ الحفظِ والرِّعايةِ معَ رسولنَا ﷺ وصاحبهِ، كانَ لهَا نفسُ الأثرِ معَ موسَى وهارونَ منْ قبلُ، حينمَا أمرهمَا اللهُ تعالَى بالذَّهابِ إلَى فرعونَ لبلاغِ الرِّسالةِ، واستخلاصِ بنِي إسرائيلَ منْ قهرهِ وسخرتهِ، قالَ تعالَى حاكيًا عنهمَا: ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: 45 – 46].

والمرادُ بـ (لَا تَخَافَا) ممَّا عرضَ فِي قلبكمَا منَ الإفراطِ والطُّغيانِ؛ لأنَّ ذلكَ هوَ المفهومُ منَ الكلامِ، يبيِّنُ ذلكَ أنَّهُ تعالَى لمْ يؤمِّنهمَا منَ الردِّ ولَا منَ التَّكذيبِ بالآياتِ ومعارضةِ السَّحرةِ، وقولهُ: (إِنَّنِ

[89] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي 8/ 146.

[90] انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 4/136 – محاسن التأويل، القاسمي 5/ 419.

مَعَكُمَآ) عبارةٌ عنِ الحراسةِ والحفظِ، وأكدَّ ذلكَ بقولهِ تعالَى: (أَسْمَعُ وَأَرَى) فبيَّنَ سبحانهُ وتعالَى أنَّهُ معهمَا بالحفظِ والعلمِ فِي جميعِ مَا ينالهمَا، وذلكَ هوَ النِّهايةُ فِي إزالةِ الخوفِ.

قالَ القفَّالُ: قولهُ: (أَسْمَعُ وَأَرَى) يحتملُ أنْ يكونَ مقابلًا لقولهِ: (أَن يَّفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أن يَّطْغَى) والمعنَى: يفرطَ علينَا بأنْ لَا يسمعَ منَّا: أوْ أنْ يطغَى بأنْ يقتلنَا، فقالَ اللهُ تعالَى: إنَّنِي معكمَا أسمعُ كلامهُ معكمَا فأسخِّرهُ للاستماعِ منكمَا، وأرَى أفعالهُ فلَا أتركهُ حتَّى يفعلَ بكمَا مَا تكرهانهِ، واعلمَا أنَّ ناصيتهُ بيدِي، فلَا يتكلَّمُ ولَا يتنفَّسُ ولَا يبطشُ إلَّا بإذنِي وبعدَ أمرِي، وأنَا معكمَا بحفظِي ونصرِي وتأييدِي[91].

وهذَا مَا كانَ، فقدْ تحقَّقَ وعدهُ عزَّ وجلَّ، سواءٌ فِي بلاغِ الرِّسالةِ أوْ فِي حفظِ موسَى وهارونَ منْ فرعونَ وجندهِ، وتيقَّنَ موسَى منْ هذَا حتَّى معَ مَا كانَ فِي قلبهِ فِي بدايةِ الدَّعوةِ منْ خوفٍ بشريٍّ فطريٍّ جعلهُ يقولُ مَا يقولُ.

إلَّا أنَّنَا نراهُ فِي موقفٍ أشدَّ وأحدَّ فِي موقفِ عبورِ النَّهرِ وهوَ يقولُ لقومهِ رادعًا لهمْ وزاجرًا عنْ أوهامهمْ عندمَا قالُوا: إنَّا لَمُدْرَكُونَ: ﴿ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[الشعراء: 62].

فنبَّههمْ موسَى أنْ ليسَ الأمرُ كمَا ذكرتمْ، كلَّا لنْ تُدركُوا إنَّ معيَ ربِّي سيهدينِي، يقولُ: سيهدينِي لطريقٍ أنجُو فيهِ منْ فرعونَ وقومهِ وسيكفينِي، أي: للنَّجاةِ، وقدْ وعدنِي ذلكَ، ولَا خلفَ لموعودهِ[92].

[91]انظر: مفاتيح الغيب، الرازي 22/ 54 – اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل 258/13.

[92]انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٥٦، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١١٨.

وفِي بيانِ موسَى عليهِ السَّلامُ وردِّهِ علَى قومهِ بهذهِ الشدَّةِ (كَلَّا) مَا فيهِ منْ توكيدٍ ويقينٍ وثقةٍ واطمئنانٍ إلَى قدرةِ اللهِ الحافظِ ونصرتهِ وهوَ المعينُ (كَلَّا) فِي شدَّةٍ وَتوكيدٍ، كلَّا لنْ نكونَ مدركينَ، كلَّا لنْ نكونَ هالكينَ، كلَّا لنْ نكونَ مفتونينَ، كلَّا لنْ نكونَ ضائعينَ، كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِي.

نعمْ، بهذَا الجزمِ والتَّأكيدِ واليقينِ.

ثمَّ فِي اللَّحظةِ الأخيرةِ ينبثقُ الشُّعاعُ المنيرُ فِي ليلِ اليأسِ والكربِ، وينفتحُ طريقُ النَّجاةِ منْ حيثُ لَا يحتسبونَ[93].

[93] كل الباب مقتبس من موقع: موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

المحتويات




هذا وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم